الفصل الثالث

الأنبياء الأولون

ماذا بعد واقعة الطوفان؟

بين نوح وإبراهيم عليهما السلام زمن مفقود في التوراة وأحداث وشخصيات تناستها التوراة بينما جاء عليها القرآن الكريم وأكدها بشيء من التفصيل.

والمدقق في التوراة يرى أنها أوردت بعد واقعة الطوفان أسماء من أتوا بعد نوح (عليه السلام) من أولاده وأحفاده وأحفاد أحفاده. وقد قسمت شعوب العالم الشرقي حسب تقسيمات أولاد نوح ومن أنجبوا.

وقد أشارت التوراة إلى أن أولاد سام انتشروا في أماكن هي أقرب إلى وسط الجزيرة العربية وجنوبها كما أشارت إلى أن أولاد حام انتشروا في مصر والسودان وكذلك أولاد يافث حيث انتشروا في مناطق أخرى.

ويستدل من كلام التوراة أن أحفاد سام وصلوا إلى حضرموت جنوب الجزيرة العربية وهذا يعني أنهم تواجدوا في هذه المنطقة وما قبلها وهي تشمل الأحقاف والحجاز ونجد والأردن. واكتفت بهذه التقسيمات لتنتقل إلى الحديث عن أجداد النبي إبراهيم عليه السلام.

والحقيقة أننا لو دققنا النظر في الفترة الزمنية التي تفصل بين نوح وإبراهيم عليهما السلام لوجدناها طويلة وذلك للتقديرات التالية:

1 ـ حمل نوح (عليه السلام) في السفينة من آمنوا معه وأهله وهم قلة وعلى أكثر تقدير وحسب إحدى الروايات كانوا سبعين بين إناث وذكور إن لم يكونوا أقل بكثير.

2 ـ بعد هبوط السفينة واستقرارها من المفترض أن من كان مع نوح (عليه السلام) لم ينفصلوا عنه إلا بعد أن تكاثروا جداً وضاقت بهم الأرض التي نزلوا بها وهذا يحتاج لمئات السنين لأنه لا يعقل أن يذهب أولاده كلٌ في جهة ولم تتجاوز عائلته

عدد الأصابع. وطبيعة الإنسان تقتضي الاجتماع وليس الابتعاد عن بني جنسه ثم ما الداعي لابتعادهم عن بعضهم والأرض التي نزلوا بها تتسع لشعوب برمتها.

3 ـ إذا نظرنا إلى عقائد الشعوب التي كانت زمن إبراهيم عليه السلام وجدنا أكثرها وثنياً بينما الذين كانوا مع نوح هم الفئة التي آمنت به وبرسالته وتحولُ الناس من التوحيد إلى الوثنية يحتاج أيضاً لزمن ليس بالقصير.

إن هذه التقديرات تجعلنا نتوقف كثيراً للبحث عن الزمن المفقود بين مرحلتين، مرحلة نوح ومن آمن معه ومرحلة إبراهيم التي كانت تعج بالشعوب والحضارات المنتشرة في وادي الفرات ودجلة وفلسطين ومصر وجنوب الجزيرة العربية.

إن القرآن الكريم يوضح لنا الإجابة على تساؤلاتنا حول هذا الزمن المفقود في التوراة. ولو عدنا إلى الآيات القرآنية الكريمة لوجدنا ذلك واضحاً دون ريب أو لبس.

ويبقى أن نسأل لماذا لم تتحدث التوراة عما جرى من أحداث بين الفترتين؟ هذا ما سنحاول دراسته والإجابة عنه بعد أن نورد ما جاء في القرآن الكريم.

يقول تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: 69].

ويقول تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ

بِـَٔايَـٰتِنَا وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : 65 ـ 72].

وقد ورد ذكر هود في القرآن الكريم سبع مرات فذكر في سورة الأعراف في الآية 65 وفي سورة هود في الآيات 50 ـ 53 ـ 58 ـ 60 ـ 89 وفي سورة الشعراء في الآية 124 .

ويستطيع القارئ لآيات القرآن أن يعرف :

1 ـ هود نبي مرسل جاء بعد قوم نوح .

2 ـ ذكر القرآن مساكن قومه في الأحقاف .

3 ـ تحدث القرآن عن ضخامة أجسامهم وقوتهم .

4 ـ ديانة قوم هود وثنية .

وإذا عدنا إلى القرآن الكريم فإننا نرى أنه ذكر قوم عاد على أنهم خلفاء لقوم نوح .

ويفهم من هذه الآية أن قوم عاد استخلفوا قوم نوح الذين كفروا بديانته قبل الطوفان والاستخلاف هنا هو زمني جغرافي . إن قوم عاد جاؤوا بعد قوم نوح ولكننا نعرف أن قوم نوح قد أبيدوا بالطوفان وبقي منهم من آمن بنوح . وقد يكون أحد أبناء نوح قد سكن المنطقة التي وُجد فيها قوم عاد من بعده . وقد يكون قوم عاد من نسل أحد أبناء نوح وإذا تذكرنا ما قالته التوراة عن المناطق التي سكنها سام بن نوح أدركنا أن قوم عاد ليسوا ببعيدين من أن يكونوا من نسل سام بن نوح استخلفهم الله بعد أن أباد أجدادهم من قوم نوح .

وقد ذكر بعض الرواة العرب أن هوداً يعود بنسبه إلى سام بن نوح حسب الشكل التالي :

سام ، إرم ـ عوص ، عاد ، الخلود ، رباح ، عبد الله ، هود .

وقد ذكرت التوراة اسم عوص من بين أولاد سام بن نوح لكنها لم تذكر أولاده وأحفاده . أما بالنسبة لمساكن عاد فكانت في منطقة الأحقاف التي تقع

شمال حضرموت وفي شمالها الربع الخالي وفي شرقها عمان، وقد ذكرنا أن اسم حضرموت ذكرته التوراة على أنه من المناطق التي يسكنها الساميّون.

يقترن اسم عاد بمدينة إرم. وقد ذكرها القرآن الكريم وذكر أنها لم يخلق مثلها في البلاد وهذا يدل على أن قوم عاد كانوا جبارين أقوياء بنوا إرم ذات العماد من الصخور التي جلبوها من أحد الوديان. وقوله لم يخلق مثلها في البلاد أي في زمنها حيث كانت الحضارات الأولى في مهدها. وباقتران هذه المدينة العظيمة بعاد يدل على أنهم عاد الأولى، نعود إلى سؤالنا الذي طرحناه في البداية لماذا لم يذكر قوم عاد ولم يذكر النبي هود في التوراة ؟.

واقع الأمر تجيب عليه التوراة نفسها. فكتبتها ومدونوها الذين أوجدوها أثناء السبي البابلي دونوا المسائل التاريخية التي تخصهم أو التي تصوروا أنها تخصهم. ومسرح تنقل الأشخاص المعنيين في التوراة هي بلاد الكلدانية. وبلاد الشام ولا سيما فلسطين ثم مصر. ولم يتعدوا ذلك ولو وجدوا خبراً واحداً عن عاد لادّعوه وربطوا أنفسهم به.

ثم إن التوراة لم تهتم بالبلاد البعيدة عن مسرح تنقلهم فتركيزهم كان على أرض كنعان أي فلسطين وما جاورها شرقاً وغرباً. أي بلاد الشام ومصر والعراق، وهي المناطق التي تواجدوا فيها إما رعاة متنقلين أو مسبيّين.

وعلى اعتبار أن قوم عاد كانوا جبارين وبناة حضارة في إرم ذات العماد فإن التوراة قد تغافلت عن ذكرهم باعتبارهم الأسبق حضارياً بين الشعوب العربية السامية وهذا لا يروق لهم ونذكر جميعاً كيف أن الصهاينة حاولوا دس أنوفهم عندما اكتشفت حضارة إيبلا. في تل مرديخ في محافظة إدلب السورية، وأي سبق حضاري يحاول الصهاينة أن ينسبوا لأنفسهم شيئاً من المساهمة فيه. هذا بغض النظر عن أن قوم عاد قد كفروا بالله عز وجل ورفضوا ما جاء به نبيهم هود.

ثم إن التوراة لا تعترف بأي نبي كان من كان إن لم يكن يتصل بنسبه إلى يعقوب.

فهي لا تعترف بهود ولا بصالح ولا بنبينا صلى الله عليهم جميعاً فكيف نريدها أن تتحدث عن عاد ونبيّها وليس عبرانياً أو ينتسب إلى يعقوب.

إن سلسلة النسب العبراني تبدأ ـ حسب ادعاءاتهم ـ من إبراهيم ثم إسحق فيعقوب فيوسف والأسباط. وموسى وهارون وداود وسليمان.

ثم إذا عدنا إلى قصة أهل إرم نجد أن الله سبحانه سلط عليهم ريحاً صرصراً في سبعة ليال وثمانية أيام ويستشف من الآيات أنها أبادتهم وبقيت مساكنهم آثاراً دالة على قوتهم وضعفهم أمام رب العالمين. لقد نجى الله الفئة التي آمنت برسالة هود وكانوا قلة.

هنا لابد من العودة إلى ما قالته التوراة في سفر التكوين وفي قصة نوح بالتحديد حيث ادعت أن الله حزن في قلبه لتدمير الأرض وإغراق قوم نوح فكيف بهذا الرب يعود مرة ثانية منتقماً من قوم هود يهلكهم جميعاً إلا الفئة المؤمنة ؟.

مرة ثانية وثالثة سنجد أن الله سبحانه وتعالى وضع الجزاء والعقاب وبعث الرسل والأنبياء لهداية أقوامهم فمن لم يتعظ فإن مصيره مصير قوم نوح وعاد وغيرهم.

ومن خلال الآيات الكريمة نرى أن الريح الصرصر نزعت الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر أما ما بقي من قوم عاد فآثارهم التي بقيت بعدهم. وإذا ما قدر للمكتشفين وللآثاريين اكتشاف مدينة إرم فإن ما سيجدونه هو ما يدهش العقول والعلماء لأن الله سبحانه قال: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَدِ﴾ [الفجر: 7-8].

إن التوراة التي يعدّها بعض الباحثين الغربيين أقدم مدوَّن تاريخي سيجدون أنفسهم أمام كتاب خاص جداً باتباع العقيدة التوراتية وسيجدونه ضئيلاً أمام حضارات الشعوب وعقائدها وأنبيائها.

بينما لو دققوا في القرآن الكريم لوجدوا أنه يمنح البشرية بعلمائها وباحثيها مفاتيح لدراسة التاريخ رغم أنه كتاب الله التشريعي وليس هو كتاباً تاريخياً كما التوراة.

نعود فنقول مرة أخرى إن الحلقة الزمنية المفقودة في التوراة بين قوم نوح وإبراهيم عليهما وعلى نبينا الصلاة السلام بينها القرآن الكريم بذكره لقوم عاد ومن أتى بعدهم من قوم ثمود.

أما قوم ثمود والنبي صالح عليه السلام فلم تذكر التوراة شيئاً عنهم شأنهم شأن قوم عاد.

والذي يستوقفنا في هذه المحطّة أن الزمن ما يزال مبكراً للحديث عن النبي إبراهيم عليه السلام، لقد قفزت التوراة من نوح إلى إبراهيم والفارق الزمني بينهما حسب نص التوراة يقدر بـ 850 عاماً لكن ذلك فيه من عدم الضبط الكثير إذ ترى التوراة أن نوحاً عاش 950 وعلى هذا الأساس فإن إبراهيم يكون قد عاصر نوحاً ستين سنة.

إن الوارد في القرآن الكريم هو غير ذلك تماماً. فقوم عاد استخلفوا قوم نوح ثم استخلف قومُ ثمود قومَ عاد ثم ذُكر إبراهيم بعد زمن طويل على انقضاء عصر نوح عليه السلام.

وما يؤكد أن كتبة التوراة دونوا ما كانوا يسمعونه من حكايات بدون ضبط، وجود نبيين في آن واحد يدعوان إلى التوحيد. فالذي نراه أن إبراهيم عليه السلام جاء برسالة تتمم رسالة النبي نوح عليه السلام. وعصر إبراهيم غير عصر نوح من حيث وجود الحضارات وتنوع العقائد وانتشار الشعوب القديمة في المنطقة العربية كلها.

ثم ما الداعي كي يكون نوح وإبراهيم قد التقيا. فنوح ظل مع من آمن معه على ديانة التوحيد إلى أن أخذ الناس يكثرون ويبتعدون عن التوحيد فجاء إبراهيم عليه السلام ليعيد إلى أذهان الناس عقيدة التوحيد.

إذاً لابد أن يبعث الله الأنبياء لهداية أقوامهم وها هم قوم عاد أو ثمود لم يتركوا دون أنبياء ورسل ولاشك أن الذين عمّروا مدينة إرم من قوم عاد والذين

حفروا بيوتهم في الصخر من قوم ثمود لم يفعلوا ذلك بيوم وليلة، إن زمناً طويلاً قد مرّ حتى تمّ لهم ذلك.

إبراهيم أبو الأنبياء:

تعتبر شخصية النبي إبراهيم عليه السلام من أهم الشخصيات في سلسلة الأنبياء والرسل عليهم السلام. وهذه الأهمية تفرض نفسها بسبب ما أثير حول الشخصية من أقوال ودراسات مختلفة الاتجاهات والوسائل والأهداف وبسبب ارتباطها بمجريات التاريخ الذي يعتبر قريباً منا بسبب وضوح معالم بعض الحضارات والتوسع السكاني في المنطقة العربية.

وبسبب ما جاء في التوراة من تفصيلات وما جاء به القرآن الكريم من توضيح حول هذه الشخصية وبسبب ارتباط هذه الشخصية بخلفيات سياسية جغرافية استندت التوراة عليها لتربط فئة من الناس بها بقصد إيجاد الجذور السياسية والتاريخية لما ستؤول إليه الأحداث بعد ذلك.

ولهذه الأسباب جميعها ولأسباب أخرى فإن دراسة هذه الشخصية وتاريخها يستند إلى الأمور التالية:

1 ـ موطن إبراهيم، ولادته، عصره، عقائد زمنه، صحفه.

2 ـ إيمان إبراهيم، عقيدته، صراعه مع قومه، حادثة إلقائه في النار.

3 ـ رحلته من موطنه إلى بلاد الشام وفلسطين تحديداً، مرافقة لوط في الرحلة وسارة زوجته.

4 ـ أرض فلسطين ماذا تشكل بالنسبة لإبراهيم، من كان يقطنها، ديانة شعبها، علاقتهم بإبراهيم.

5 ـ دعوة إبراهيم لديانة التوحيد في الأرض المباركة.

6 ـ زواجه من هاجر، سفره لمصر، إنجابه لإسماعيل، ثم اسحق.

7 ـ بناء الكعبة برفقة إسماعيل.

8 ـ علاقة إبراهيم بالعبرانيين.

9 ـ زوجات إبراهيم، أولاد إبراهيم، قصة الفداء، بين إسماعيل وإسحق.

10 ـ إسماعيل وإسحق، عقيدتهما ودراسة شخصيتهما، أين عاش كل منهما. هل لإسحق إخوة غير إسماعيل؟.

11 ـ إسحق وأولاده، يعقوب، عيسو.

12 ـ يعقوب، لماذا أطلق عليه إسرائيل، آراء حول هذا الإسم، طفولته، شبابه، زمنه، الأوضاع السياسية في زمنه، علاقة يعقوب وأولاده بالمحيط السكاني.

13 ـ أولاد يعقوب، الأسباط، يوسف.

وبذلك نكون قد بينا فترة زمنية مهمة ودرسنا شخصيات مهمة في أبعادها السياسية والدينية. وكل ذلك من خلال مقارنة ما جاء في التوراة بما جاء في القرآن الكريم حتى نستوضح الباطل من الحق ونضع كل أمر في نصابه.

ولما كانت شخصية النبي لوط عليه السلام مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالنبي إبراهيم من حيث مسار حياته والأحداث التي دارت في زمنه نجد أن دراستها لابد أن تتداخل مع دراسة النبي إبراهيم عليه السلام وما دار في زمنه من أحداث.

وبانتهاء هذه الفترة الزمنية الواقعة بين مولد إبراهيم ووفاة يوسف عليهما السلام ينقضي وقت من التاريخ الذي هو من أشد الفترات حساسية لما له من دور بارز في الصراع بين المسلمين وبين العبرانيين وأصحاب العقيدة التوراتية.

ماذا يقول النص التوراتي:

في سفر التكوين الإصحاح 11 : هذه مواليد تارح، ولد تارح إبرام وناحور وهاران وولد هاران لوطا. ومات هاران قبل تارح أبيه في أرض ميلاده في أور الكلدانيين. واتخذ إبرام وناحور لنفسيهما امرأتين اسم امرأة إبرام سباراي واسم

امرأة ناحور ملكة بنت هاران. وكانت ساراي عاقراً ليس لها ولد. وأخذ تارح إبرام ابنه ولوطاً بن هاران ابن ابنه وساراي كنته امرأة إبرام ابنه فخرجوا معاً من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان فأتوا إلى حاران وأقاموا هناك وكانت أيام تارح مئتين وخمس سنين ومات تارح في حاران.

في هذا النص نتوقف عند أمور كثيرة جديرة بالدراسة والبحث وذلك لنقارن ما جاء في القرآن الكريم.

وأول هذه الأمور شخصية والد إبراهيم المدعو تارح.

وثاني هذه الأمور شخصية لوط وحسب النص التوراتي ابن أخ إبراهيم.

ثالثهما أور الكلدانيين وباعتبارها أرض ميلاد لوالد إبراهيم.

رابعها زواج إبراهيم وناحور شقيقه من امرأتين الأولى سارة وكانت عاقراً والثانية ملكة بنت هاران أي أن ناحور تزوج ابنة أخيه، ويكون هو عمها.

رحلة تارح مع أولاده وتوقفهم في حاران وموت تارح فيها.

أما في القرآن الكريم فنرى أن قصة إبراهيم تتكرر في خمس وعشرين سورة وإذا أردنا التعرف على مسيرة سيرته نرى أن القصة تبدأ كالتالي:

يقول تعالى في سورة الصافات بعد أن تحدث عن قوم نوح: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ۝ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ۝ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات/ 82 ـ 84].

ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ۝ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ۝ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ۝ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ۝ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: 51 ـ 56].

ويقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ

فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: 74].

ويقول تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: 71].

ونترك الحديث في آيات الكتاب الحكيم الأخرى لنتابع المسيرة مقارنة بالتوراة.

1 ـ إبراهيم من شيعة نوح عليهما السلام.

2 ـ أتى الله إبراهيم رشده في سن مبكرة.

3 ـ والد إبراهيم المدعو آزر.

4 ـ عبادة الأصنام عند قوم إبراهيم.

5 ـ نجاة إبراهيم ولوط إلى الأرض التي بارك الله فيها للعالمين.

فحسب النص التوراتي يرد أن والد إبراهيم هو تارح وقد هاجر بابنه وولديه الآخرين من أور الكلدانيين باتجاه أرض كنعان وأثناء مرورهم بحاران توقف فيها ثم مات والد إبراهيم وتابع مسيرته باتجاه أرض كنعان، أما لماذا هاجر إبراهيم من أرض حاران فتقول التوراة (إن الرب قال لإبرام: اذهب من أرضك.. إلى الأرض التي أريك) التكوين 12: 1 ـ 2.

أما النص القرآني فيورد أن والد إبراهيم هو آزر ولم يرد أنه هاجر بأولاده من أور الكلدانيين. بل ذكرت الآيات الكريمة أن والد إبراهيم كان على دين قومه وهم يعبدون الأصنام. وكان معادياً لإبراهيم ودعوته إلى التوحيد. ثم يذكر القرآن الكريم أن الله نجاه ولوطاً إلى الأرض المباركة للعالمين.

والخلاف بين التوراة والقرآن كبير جداً ومهم جداً ولا سيما حين يتوقف القرآن الكريم عند نجاة إبراهيم وذهابه إلى الأرض المباركة.

تشدد التوراة على أن تارح والد إبراهيم هو من نسل نوح. وتورد أنه من آدم إلى إبراهيم يوجد عشرون شخصاً. ونوح هو الشخصية العاشرة في السلسلة التوراتية ثم تبدأ السلسلة الثانية من سام وحتى إبراهيم وتضم عشرة شخصيات

والفاصل الزمني بين ولادة نوح وولادة إبراهيم 808 سنة بينما الفرق بين وفاة نوح ووفاة إبراهيم 117 سنة وهذا يعني أن إبراهيم حسب نص التوراة عاصر أواخر أيام نوح إذ تذكر التوراة أن إبراهيم ولد عام 1948 ق. م وتوفي نوح 2006 ق. م وهذا يعني أن إبراهيم عاصر نوحاً حوالي 58 سنة.

هل هذا الكلام صحيح؟

عندما يخبرنا القرآن الكريم عن إرم ذات العماد وقوم هود ـ عاد ـ ثم يخبرنا عن النبي صالح وقومه ثمود. وهذان القومان استخلفا قوم نوح لم يكن إبراهيم قد ظهر على الأرض. إذاً فالفارق الزمني بين نوح وإبراهيم هو مليء بالأحداث ومن ثم لم يكن خالياً من الأنبياء، ولا ندري كم من الشعوب تفرقت وانتشرت حتى أصبحت مثلما كانت في زمن النبي إبراهيم، حيث الواضح أن هناك في حوض الفرات ودجلة أقواماً وحضارات كالسومريين ومن ثم البابليين والكلدانيين والأكاديين ثم في فلسطين وُجد الكنعانيون وفي سوريا الداخلية الأموريون والآراميون وفي مصر الفراعنة.

إذاً فالزمن الذي استغرق حتى تكونت الحضارات بعد نوح ليس زمناً يسيراً. وعصر إبراهيم غير عصر نوح وليس من المعقول أنه خلال ثمانمئة سنة تقام كل هذه الحضارات وتكثر الشعوب بهذه الأعداد التي نراها في ما بين النهرين وفلسطين ومصر واليمن والأحقاف وغيرها.

لكن القرآن الكريم يقول: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ والحديث هنا يدور بداية عن نوح والهاء في شيعته تعود على نوح. ومعنى كلمة شيعته لا تعني أنه من نسله، بقدر ما تعني أنه من أصحاب التوحيد. فإبراهيم ممن حمل مبادئ نوح فهو من جماعته وشيعته الذين وحّدوا الله ولم يشركوا به شيئاً. ونقول شيعة فلان أي الذين ناصروه وأيدوا مبادئه.

والقرآن الكريم لا يركز على النسب بقدر ما يركز على الإيمان والتقوى.

وإذا افترضنا أن كل مئة سنة يبعث الله نبياً أو مصلحاً وهذا الافتراض قد ينطبق على كل الأزمان فإن نوحاً مات وجاء مَن بعده ليجدد ديانة التوحيد. ولم يشر القرآن إلى أن أحداً من أولاد نوح كان نبياً. والذي يخبرنا به القرآن أن هوداً وقوم عاد استخلفوا قوم نوح. وقد نفترض أن هوداً بعث لقومه بعد نوح بمائة عام على الأقل. وعندما استخلف صالح وثمود قوم عاد فإننا نفترض أيضاً أن صالح جدد ديانة التوحيد بعد موت هود بمائة عام، ثم جاء إبراهيم ليتمم ديانة التوحيد بعد أن اندثر قوم صالح بمائة عام أخرى.

فالاحتمال أن إبراهيم عليه السلام جاء بعد نوح بثلاث مئة سنة. ووجود حضارات قائمة بذاتها في ما بين النهرين وفلسطين ومصر واليمن دليل آخر على أن عصر إبراهيم عصر حضارات واتساع في العمران وعدد أبناء الشعوب.

ويرى الدكتور أحمد سوسة أن العصر الذي عاش فيه إبراهيم الخليل عصر قائم بذاته له مقوماته وقوميته ولغته. وهو مرتبط بالجزيرة العربية وبلغتها الأم وبقبائلها التي سميت فيما بعد بالعرب البائدة لانقراضها[1].

وقد قال بعض الباحثين إن إبراهيم من عنصر عربي آرامي هاجر هذا العنصر من شبه الجزيرة العربية واستقر في جنوبي العراق في بابل.

وقد ارتبط اسم إبراهيم عليه السلام بالجزيرة العربية ولا سيما بمكة والحجاز ولم يكن ارتباطه بالخليل في فلسطين كمثل ارتباطه بمكة وبناء الكعبة.

على أية حال فإن أي باحث في عصر إبراهيم يريد أن يعرف الزمن الذي عاش فيه عليه أن يعود أولاً لدراسة مخلفات الآثار في المنطقة التي ذكرتها التوراة على أنها فعلاً بلد إبراهيم.

ثانياً: على الباحث أن يعود لدراسة الزمن الذي وجدت فيه حجارة الكعبة باعتبارها المكونة الأساسية لبناء البيت العتيق ودراسة جيولوجية المغارة التي دُفن

---

(1) أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، ص 202.

فيها إبراهيم وتقع الآن تحت بناء مسجد الخليل في فلسطين.

ثالثاً: على الباحث أن يدرس العقائد التي كانت سائدة زمن إبراهيم والقرآن الكريم يشير بوضوح إلى تلك العقائد الوثنية من خلال قصة تحطيم إبراهيم لأصنام قومه.

وإذا عدنا إلى النص التوراتي نراه يكثف في العبارة ويقفز عن أهم الأحداث في حياة إبراهيم، فإبراهيم يتزوج من سارة التي كانت عاقراً ثم أخذه أبوه وهاجر به مع زوجته وبقية أفراد عائلته إلى حاران. حيث مات تارح فيها.

فحاران مدينة بين النهرين على نهر بليخ وهو فرع للفرات وتقع على مسافة 280 ميلاً إلى الشمال الشرقي من دمشق. وقد اتخذت إله القمر إلهاً لها[1].

وعلى هذا الأساس فإن إبراهيم كان قد هاجر مع أبيه من بلده الأصلي إلى حاران حيث مات أبوه وهذا هو فحوى كلام التوراة. وحاران ضمن حدود سوريا الحالية وعلى ذلك يُطرح سؤال أين وقعت الأحداث مع إبراهيم؟. تدميره للأصنام، جداله مع قومه ومحاولة حرقه بالنار. ثم هجرته أو هربه إلى أرض مباركة.

فإذا كان قد هاجر مع أبيه إلى حاران فهل كان قومه هم أهل حاران؟ بالطبع هذا ليس صحيحاً لأنه هاجر إليها وكأنه غريب عنها. ثم كيف ينجيه الله من قومه ومعه لوط إلى الأرض المباركة وهو في حاران؟.

ولو عدنا إلى نص التوراة مرة أخرى لوجدناه يقول (وأقاموا هناك) والإقامة ليس مدة قصيرة. حيث يبقى تارح والد إبراهيم فيها حتى يموت.

أما القرآن الكريم فيفتح لنا أبواب البحث بالتدرج حتى نصل إلى حقائق لم تصل لها التوراة فالتسلسل القرآني في قصة إبراهيم يجري كالتالي:

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ

---

(1) قاموس الكتاب المقدس، حرف الحاء.

مُبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الأنعام: 74 ـ 79].

وبغض النظر عن كون اسم أبيه آزر أو غير ذلك فما يهمنا من هذا السياق هو حديث إبراهيم لأبيه بشأن عبادة الأصنام التي درج عليها قومه.

ومن ظاهر الآيات نجد أن عبادة الأصنام كانت منتشرة بين قوم إبراهيم وقد تركزت عبادتهم على عبادة أحد الكواكب والقمر والشمس. وعلى الغالب فإن الكوكب هو المريخ أو الزهرة. باعتبارهما الأكثر لمعاناً في الليل. وقد ألهم الله سبحانه إبراهيم أن ينظر ويتفكر في ملكوت السماوات والأرض حتى يصل بتفكيره إلى الإيمان الحقيقي بالله وذلك من خلال التفكر في مخلوقات الله الكبرى كالقمر والكواكب والشمس. وسياق الآيات الكريمة يدلنا بشكل واضح كيف أن إبراهيم كان يبحث عن إله ثابت لا يأفل وهذا الإله يجب أن يكون كبيراً حتى لا يعلو عليه شيء. ولكن وعي إبراهيم وقلبه دلاّه إلى الحقيقة الإلهية التي ليس كمثلها حقيقة.

ولما أدرك إبراهيم أن الكوكب والشمس والقمر ما هي إلا أجرام تأفل وتغيب عن ناظريه رجع إلى قومه فأعلن براءته منهم ومن عبادتهم.

وتعتبر هذه المرحلة هي النقلة النوعية في حياة إبراهيم. وهي نقلة أولى سيتبعها نقلات أخرى متطورة حسب تطور الصراع بين ديانة التوحيد والإشراك بالله.

ومن المدهش حقاً أن التوراة لم تذكر هذه المرحلة نهائياً. ويبدو أن تركيزها كان على نسبه ومن ثم هجرته إلى الأرض المباركة ووعد الله بأن يمتلكها.

ويبدو أن قوم إبراهيم لم يعيروه اهتماماً في بادئ الأمر حتى الآيات الكريمة

تدل على أن قومه خوّفوه من إيذاء آلهتهم له إن هو عاداها.

يقول تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: 80 ـ 81].

ويبدو أن هذا الجدال الذي وقع بين إبراهيم وبين قومه كان في فترة شبابه المبكرة حيث أن قومه لم يستخدموا معه العنف بل استخدموا التخويف، بينما قصة تكسيره للأصنام جاءت لاحقة على ذلك، ولأن قومه أدركوا أنه بات يشكل خطراً على عقائدهم الوثنية حاربوه ثم ألقوا القبض عليه ليحرقوه أما بالنسبة لأبيه آزر أو تارح والذي ذكرته التوراة ذكراً عادياً في سياق السرد القصصي التوراتي فقد كان له دور مهم في حياة إبراهيم.

فمنذ البداية ظهرت عداوة الأب لابنه. وكان أبوه متعصباً لعقيدة قومه وعبادة الأصنام، وليس مستبعداً أن يكون أبو إبراهيم فعلاً صانع تماثيل يبيعها وقد يكون قد خاف على خسارته مالياً إن توقف بيعه لها. فعداء آزر لإبراهيم عداء لسببين. سبب تجاري وسبب عقيدي باعتباره كان على دين قومه وآبائه.

كل ذلك لم تأت عليه التوراة بل اكتفت بسرد النسب الأبوي فليس هناك عداء وليس هناك ديانة توحيد وليس هناك أصنام وما شابه ذلك.

وأعتقد أن التوراة تحاشت الحديث عن الصراع بين إبراهيم وأبيه حتى لا يظهر أن نسب الإنسان ليس هو مقياس الأفضلية إنما عقيدته وفكره ومدى إيمانه بالله. ومقياس النسب يهم التوراتيين جداً حيث لا يتركون سفراً من أسفار التوراة إلا ويذكرون نسبهم إلى إبراهيم أو إلى أولاده فيه.

وفي السياق القرآني نفسه يحاور إبراهيم أباه وقومه حول عبادة الأصنام. ويظهر من هذا السياق أن إبراهيم كان يرى أباه وأفراد قومه وهم يذهبون للمعابد

الوثنية يعكفون على عبادة الأصنام. وقد عرض إبراهيم على أبيه الابتعاد عن عبادة الأصنام لكن أباه رفض ذلك.

يقول الله تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ۝ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ۝ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: 46- 48].

وتستوقفنا الآية الأخيرة أي الآية 48 من سورة مريم حيث يوضح القرآن الكريم أن إبراهيم بيّت نيته ليستغفر لأبيه ومن ثم ليعتزل قومه وعبادتهم. وهنا نرى أن النبي إبراهيم قبل أن يقدم على تحطيم الأصنام اعتزل قومه وعبادتهم. وهذا الاعتزال استغرق وقتاً. وقد التجأ إبراهيم للتعبد لوحده على طريقته التوحيدية المخالفة لعقيدة أبيه وقومه، وإذا كان أبوه قد هدده بالرجم إن لم ينته عن شتم أصنامهم وعدائه لعقيدتهم فكيف يهاجر أبوه ويأخذه معه إلى حاران حسب نص التوراة ؟.

لقد قال له أبوه اهجرني ملياً فهجره واعتزلهم لمدة زمنية لا نعلمها. المهم أنه عاد وقد ترسخ الإيمان في قلبه وانتقل من الاعتزال إلى الجهاد العملي حيث رجع ليحطم الأصنام ويعلن حربه العملية ضد الكفر والشرك.

لم يرد في التوراة أي ملمح لصراع ما بين إبراهيم وقومه وكذلك تحطيمه لأصنام قومه والذي يعتبر المحطة الثانية في حياة إبراهيم. وترتبط هذه المرحلة بالجدل الذي دار بين إبراهيم والملك الذي ادعى الربوبية حيث تتلاحق الأحداث ولم يجد إبراهيم مفراً من تنفيذ أمر الله بالاعتزال الكلي عن قومه وعن عقائدهم والهجرة من بلاده إلى الأرض التي بارك الله فيها للعالمين.

ومن خلال آيات القرآن الكريم نستطيع أن نفهم مجريات الأحداث لنصل إلى النقلة الزمنية التالية في حياة هذا النبي العظيم عليه السلام:

بيّت إبراهيم النية على تحطيم الأصنام. ولما دنت الساعة التي حددها ذهب

قومه ليحتفلوا بأحد أعيادهم. فذهب إلى مجمع بيت الأصنام وراح يحطمها واحداً بعد الآخر وأبقى كبيراً للأصنام على حاله.

يقول تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: 58 ـ 60].

ثم قبضوا عليه وحاجّوه وحاججهم.

يقول تعالى: ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝ قَالُوٓا ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ۝ فَرَجَعُوٓا إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ۝ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: 61 ـ 67].

ومن خلال آيات سورة الأنبياء التي تحدثت عن النبي إبراهيم عليه السلام يتضح أن إبراهيم كان فتى أو شاباً لم يبلغ مبلغ الرجال. ويتضح أنه كان مجهولاً لدى قومه إلى هذا الوقت إذ يقول تعالى واصفاً إياهم: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾.

ويتفق قومه على إنزال العقوبة به بحرقه في النار.

في سورة الأنبياء في الآية 68 ـ 70 ترد قصة حرق إبراهيم بالنار إذ يقول تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝ وَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾.

ويبدو أن إبراهيم بدأ دعوته للتوحيد بأبيه الذي هو أقرب الناس إليه. ولما لم يستجب الأب لدعوته اعتزله وقومه وما يعبدون من دون الله لفترة ليست طويلة ثم عاد ليحطم أصنامهم ويتحداهم علانية.

ولم يظهر موقف أبيه أثناء حرقه. فلا هو دافع عنه ولا هو ساهم في إحراقه.

غير أن القرآن الكريم يوضح أن أباه لم يؤمن وبقي على دين قومه وعبادة الأصنام.

وقد أوضح القرآن الكريم أن أبا إبراهيم قد وعد ابنه بالإيمان بالله الواحد. فاستغفر له ابنه بسبب هذا الوعد. لكن الأب لم يؤمن. ولما تبين أنه كذب عليه تبرأ منه.

يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: 114].

وكما قلنا سابقاً فإن التوراة تورد في سفر التكوين أن تارح أخذ ابنه إبراهيم وهاجر به من أور الكلدانيين إلى حاران ولم تشر لا من قريب ولا من بعيد إلى هذا العداء بين الأب وابنه والتباين في عقيدة كل منهما.

ومن خلال السياق القرآني تخبرنا الآيات الكريمة عن جدال جرى بين إبراهيم وبين أحد الملوك الذين ادعوا الألوهية. وقد قال المفسرون المسلمون إن ذلك الملك هو النمرود.

وقصته معروفة لدى المسلمين كما وردت في القرآن الكريم وكتب التفاسير.

ويقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: 258].

ولا نجد في التوراة مجريات لهذه الأحداث. بل هي تكتفي بذكر هجرته مع أبيه إلى حاران. ثم وفاة والده ثم هجرته إلى أرض كنعان. وليس هناك من سبب تذكره التوراة لهذه الهجرة هل بسبب القحط أو الجدب أم بسبب التجارة أم بسبب العقيدة. إنما نستطيع أن ندرس الأحداث التوراتية القادمة لنرى أن غاية إبراهيم من الهجرة ليس لها علاقة بالعقيدة التي آمن بها. إنما لها علاقة بوعد إلهي له بتمليكه أرض كنعان.

يأتي في سفر التكوين الإصحاح 11 ـ 12 : (وأخذ تارح إبراهيم ابنه ولوطاً بن هاران ابن ابنه وساراي كنته امرأة إبراهيم ابنه . فخرجوا معاً من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان . فأتوا إلى حاران وأقاموا هناك . وكانت أيام تارح مئتين وخمس سنين ومات تارح في حاران) .

(وقال الرب لإبرام إذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك . فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة... فذهب إبرام كما قال له الرب وذهب معه لوط . وكان إبرام ابن خمس وسبعين سنة لما خرج من حاران . فأخذ إبرام ساراي امرأته ولوطاً ابن أخيه وكل مقتنياتهما التي اقتنيا والنفوس التي امتلكا في حاران . وخرجوا ليذهبوا إلى أرض كنعان . فأتوا إلى أرض كنعان . واجتاز إبرام في الأرض إلى مكان شكيم إلى بلوطة ممرا . وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض فظهر الرب لإبرام وقال لنسلك أعطي هذه الأرض . فبنى هناك مذبحاً للرب الذي ظهر له) .

هذا مجمل الحديث التوراتي الذي خص رحلة إبراهيم وهجرته من أور الكلدانيين إلى أرض كنعان .

أما في القرآن الكريم فيرد قوله تعالى في سورة العنكبوت 26 : ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ .

ويقول تعالى : ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ﴾[الأنبياء : 71].

فإبراهيم حسب النص التوراتي الذي لا يورد شيئاً عن صراعه مع قومه وأبيه يهاجر إلى أرض كنعان دون أي سبب سوى أنه أخذ مقتنياته ولوط معه ثم اتجه إلى أرض كنعان وترى التوراة أن الرب خاطب إبراهيم وأمره أن يترك أرضه وعشيرته وبيت أبيه ليريه أرضاً أخرى يعده أن يملكه إياها .

أما ظاهر الآية القرآنية فيشير إلى أن الله سبحانه نجى إبراهيم ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ، فالنجاة لا تأتي إلا بسبب مصيبة ستحل أو

بسبب مؤامرة تبيّت والله نجى إبراهيم لأن قومه كادوا له وبيتوا النية على قتله. وقد يئس من دعوته لهم، بعد أن عانى منهم ما عانى، ثم إن إبراهيم مكلف بنشر دعوته وعقيدة التوحيد وعندما يأمره الله بالهجرة فإن السبب في ذلك تكليفه بنشر دعوة التوحيد وليس لسبب آخر ويتضح ذلك من قول لوط في سورة العنكبوت: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. فإبراهيم علَم لوطاً أن هجرته بعيداً عن قومه هي من أجل غاية ربانية إلهية فآمن له وسافر معه.

يقول ابن حزم الظاهري الأندلسي: وبعد ذلك ذكر أن الله تعالى قال لإبراهيم عليه السلام لنسلك أعطي هذا البلد من نهر مصر النهر الكبير إلى نهر الفرات. وهذا كذب وشهرة من الشهر لأنه إن كان عنى بني إسرائيل وهكذا يزعمون فما ملكوا قط من نهر مصر ولا على نحو عشرة أيام منه شبراً مما فوقه. وذلك من موقع النيل إلى قرب بيت المقدس. وفي هذه المسافة الصحارى المشهورة الممتدة، والحضار ثم رفح وغزة وعسقلان وجبال الشراة التي لم تزل تحاربهم طول مدة دولتهم وتذيقهم الأمرين إلى انقضاء دولتهم ولا ملكوا قط من الفرات ولا على عشرة أيام منه بل بين آخر حوز بني إسرائيل إلى أقرب مكان من الفرات إليهم نحو سبعين فرسخاً فيها قنسرين وحمص التي لم يقربوا منها قط. ثم دمشق وصور وصيدا التي لم يزل أهلها يحاربونهم ويسومونهم الخسف طول مدة دولتهم بإقرارهم ونصوص كتبهم. وحاش الله عز وجل أن يخلف وعده في قدر دقيقة من سرابه فكيف في تسعين فرسخاً في الشمال ونحوها في الجنوب ثم قوله النهر الكبير. وما في البلاد التي ملكوا نهر يذكر إلا الأردن وحده وما هو بكبير إنما مسافة مجراه من بحيرة الأردن إلى مسقطه في البحيرة المنتنة نحو ستين ميلاً فقط[1].

وواضح القول في كلام ابن حزم أن بني إسرائيل استعمروا الأرض المذكورة أي أرض كنعان وظل أهل البلاد الأصليين يحاربونهم إلى أن أخرجوا منها. وابن

---

(1) ابن حزم الظاهري الأندلسي، الفصل بين الملل والأهواء والنحل ص 218 المجلد الأول.

حزم قرأ التاريخ وأدرك بحسه الفلسفي الموسوعي أن هذه الأرض لها أصحابها الذين لم يسكتوا على احتلال أرضهم من قبل اليهود حتى زالت الدولة التي أقاموها مدة من الزمن.

على أية حال فموضوع وعد الله لإبراهيم بأن يمنحه الأرض الواقعة بين الفرات والنيل أثار لدى كافة الباحثين القدامى والمحدثين مسلمهم وغير مسلمهم إشكالات كبيرة ارتبطت بالدوافع القومية والعقيدية والسياسية. ومازال هذا الموضوع يثير النقاش باستمرار لما له من نتائج كبيرة على ساحة الصراع القائم والمستقبلي بين الاحتلال اليهودي لأرض فلسطين وبين أصحاب الأرض والحق الأصليين وسنعود لهذا الموضوع في صفحات قادمة لنفرد له المساحة اللازمة للنقاش والاستنتاج.

وحين نعود إلى فهم قوله تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾.

نرى أن الله سبحانه نجى إبراهيم إلى أرض آمنة وليس إلى أرض خراب وطالما أن الله بارك فيها للعالمين أي لكافة البشر فإنها على هذا الأساس ستكون أرض عطاء مادي وروحي وهذا ما سيكون المستقبل بعد إبراهيم حافلاً به حيث ظهور عدد من الأنبياء فيها وإسراء الرسول محمد ﷺ إليها باعتبار أن فيها الأقصى أولى القبلتين الذي بارك الله بالأرض التي حوله وربطها بالمسجد الحرام والحرم النبوي الشريف حيث تشد الرحال إلى هذه المساجد الثلاثة، كما أشار لذلك قول رسول الله ﷺ في حديث مشهور معروف (لا تشد الرحال إلى للمسجد الحرام والأقصى ومسجدي هذا). وفي رواية أخرى: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام. والمسجد الأقصى ومسجدي[1].

(1) رُوي الحديثان عن ست عشرة طريقة ورواه ستة من أصحاب رسول الله ﷺ.

الأرض التي بارك الله فيها وهجرة إبراهيم إليها:

أوردنا أن القرآن الكريم يشير إلى أن الله سبحانه نجّى إبراهيم ولوطاً إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين.

فهذه الإشارة للأرض المباركة تجعلنا نتساءل أين هي الأرض التي بارك الله فيها العالمين؟ أهي مكة أم فلسطين. أم كلاهما معاً باعتبارهما مسرح الأحداث القادمة مع النبي إبراهيم عليه السلام؟ تشير التوراة إلى أن هجرة إبراهيم كانت إلى أرض كنعان وتشير أيضاً إلى أن الكنعانيين كانوا حينئذ في الأرض.

فاختيار أرض كنعان ليس اختياراً بشرياً تم من قبل إبراهيم إنما هو اختيار رباني نستطيع أن نكشف بعض جوانبه ونلقي الضوء على أسبابه.

1 ـ إن إبراهيم عليه السلام نادى بديانة التوحيد وهو مكلف من الله سبحانه بتبليغ رسالته أينما ذهب وأينما حلّ. ولن تتوقف دعوته بمجرد عناد قومه ورفضهم لها.

2 ـ إن الأرض التي بارك الله فيها للعالمين كانت ممهدة لتلقي تعاليم إبراهيم الداعية إلى التوحيد ولهذا السبب لن نجد أعداء لهذه العقيدة في هذه الأرض المباركة.

3 ـ اختار الله سبحانه مكة المكرمة منذ الأزل لتكون محجاً للناس ولذلك كلف إبراهيم ببناء الكعبة. ولن يتم بناؤها دون هجرة هذا النبي الكريم من بلده إلى مكة.

4 ـ إن اختيار الله سبحانه يأتي ضمن ترتيب رباني للتاريخ القادم الذي سيشهد صراعاً مريراً بين التوراتيين الذين يدعون نسبهم لإبراهيم وبين المسلمين الذين اتبعوا دين إبراهيم وهم أصحاب الأرض التي سيحصل الصراع بسببها. وهذا الترتيب يأتي ضمن سياق الصراع الدائم بين الحق والباطل إلى أن يدحر الباطل وتنتصر عقيدة التوحيد التي يمثلها المسلمون.

وعندما نطالع النص التوراتي نرى أن الرب ظهر لإبراهيم ووعده بعد أن

أراه أرض كنعان أن تكون لنسله. وقال لنسلك أعطي هذه الأرض فبنى هناك مذبحاً للرب الذي ظهر له.

فهل حقاً وعد الله إبراهيم بأرض كنعان بأن تكون لنسله من بعده؟ وكيف ستكون لنسله ويقطنها شعب كنعاني متقبل لعقيدة التوحيد ولم يضايق إبراهيم في دعوته وتجواله في المنطقة؟.

صحيح أن الله اختار الأرض المباركة دار أمان لإبراهيم ونجاةٍ ودعوةٍ ولكنه لم يعده بها.

والتوراة تركز على قولها إن هذه الأرض لأبناء يعقوب الذي يعتبرونه جدهم الأكبر وجد يعقوب هو إبراهيم الذي وعده الله بأن الأرض ستمنح لنسله. إن القرآن الكريم لم ينص على أن الله وعد إبراهيم أنه سيمنحه هذه الأرض، والاختلاف بين القرآن والتوراة هو اختلاف في طبيعة الإله. فالتوراة تنحرف تماماً في تصوير الإله. لأنها تجعل منه إلهاً قومياً خاصاً لبني إسرائيل وحاشا أن يكون الله كذلك.

ماذا حدث مع النبي إبراهيم بعد هجرته إلى الأرض المباركة؟

تفصل التوراة في مسير إبراهيم بعد وصوله إلى الأرض المباركة فتقول: فاجتاز إبرام إلى مكان شكيم إلى بلوطة مورة وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض فظهر الرب لإبرام... الخ النص.

أما في القرآن الكريم فلا نجد ذكراً لما قام به إبراهيم في هذه الأرض المباركة سوى بنائه للكعبة مع ولده إسماعيل وهذا ما تنكره التوراة، وقد اقتصر القرآن الكريم على ذكر نجاة الله له باتجاه الأرض المباركة أما كيف وصل. أي طريق سلك فهذا ليس من شأن القرآن أن يتحدث عنه باعتباره كلاماً لا يمت بصلة إلى مهمة النبي إبراهيم العقيدية.

وإذا عدنا إلى قول التوراة السابق. فاجتاز إبراهيم إلى مكان شكيم إلى

بلوطة ممرة . . الخ . فإننا نجد أنفسنا متوقفين عن طرح تفسيرات أخرى قبل معرفة صحة كلام التوراة أم خطئه ما الذي قال إن إبراهيم اجتاز إلى مكان شكيم؟ بالطبع ليس هناك سوى التوراة .

فالقرآن الكريم تحدث باختصار بقوله ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها... فلماذا لم يذهب إبراهيم إلى القدس وهي مركز الأرض المباركة؟ ثم لماذا استقر في الخليل ودفن هناك ولم يستقر في نابلس ويدفن فيها؟ .

ستطالعنا التوراة في أسفار قادمة عن انقسام في مملكة سليمان حيث أصبحت مملكتين إحداهما في القدس والأخرى في نابلس أي شكيم . وكانت الخليل ضمن مملكة القدس . فإذا كان الوعد الإلهي لإبراهيم بأن يعطيه الأرض له ولنسله من بعده حينما قال له انظر إلى هذه الأرض (أي فلسطين) فإن التوراتيين وجدوا ضالتهم حينما كتبوا التوراة في أول جزء من الأرض التي زعموا أن الله قد وعد إبراهيم بها له ولنسله .

وأعتقد أن كتبة التوراة أدخلوا هذه القصة أي قصة وصول إبراهيم إلى شكيم أولاً إدخالاً ورغم أن الدكتور أحمد سوسة رسم خارطة في كتابه العرب واليهود في التاريخ لمسيرة إبراهيم من بلاد الرافدين إلى فلسطين وجعله يمر في نابلس . فرغم ذلك كله لا أعتقد أن إبراهيم مر بنابلس . والذي يدفعني للقول بذلك الأحداث الآتية . حيث انقسم لوط عنه واستقر في سادوم وعامورة وإبراهيم استقر في الخليل حيث لا توجد مسافة كبيرة بين سكن لوط وسكن إبراهيم إذ أنهما كانا يلتقيان مراراً وهذا ما ورد في التوراة نفسها . والخليل أقرب كثيراً من نابلس باتجاه سكن لوط . ولا يفوتنا أن إبراهيم وزوجته وبعض أبنائه دفنوا في الخليل المكان الذي اختاره إبراهيم للاستقرار المؤقت وحين نطالع مهمة إبراهيم حسب النص التوارتي نرى أنه كرّس حياته وجهده للتجارة بالأغنام والأبقار وليس للدعوة لعقيدة التوحيد التي بسببها عذب في بلده وطورد بعد أن حطم أصنام قومه .

ليس غريباً أن يكون إبراهيم قد اقتنى الأغنام والأبقار وتاجر بها ولكن ذلك ليس هو الهم الأكبر لديه كما ورد في التوراة. فهناك مهمة مكلف بها وإلاّ ما معنى النبّوة وما معنى أن ينجيه الله إلى أرض يبشر فيها بدعوة التوحيد. ويلاقي من سكانها القبول وعدم العداء.

وتتضح علاقة إبراهيم مع سكان الأرض المباركة من خلال التعامل الذي حصل بينه وبينهم. فهم ليسوا غرباء عنه. والدراسات التاريخية تؤكد أن الشعوب العربية انطلقت من اليمن أو من جنوب شبه الجزيرة وانطلقت إلى بلاد الرافدين وسوريا وفلسطين ولبنان والأردن وحملت معها لغتها بلهجات متعددة وتراثها وعقائدها ومعتقداتها. فليس غريباً أن يفهم إبراهيم لغة الكنعانيّين ويفهمون لغته ويعرف تراثهم لأنه يحمل أكثره في مخزونه النفسي والفكري من قبل أن يرحل من بلاد الرافدين مضطراً ومجبراً وباحثاً عن النجاة التي كتبها الله له.

ويظهر من حديث التوراة في الإصحاح الثاني عشر من سفر التكوين التنقل السريع في مسيرة إبراهيم فهو في لحظات توراتية ينتقل من شكيم إلى بيت إيل ثم يحدث جوع في الأرض فينحدر إلى مصر.

في بداية الإصحاح الثاني عشر تقول التوراة (وكان إبراهيم ابن خمس وسبعين سنة لما خرج من حاران). ويرد في الإصحاح السابع عشر قول التوراة (وقال في قلبه هل يولد لابن مئة سنة وهل تلد سارة وهي بنت تسعين سنة).

فالفارق بين إبراهيم وسارة هو عشر سنوات وهذا يعني أن إبراهيم لما هاجر من حاران كان عمر زوجته خمساً وستين سنة. وإذا أضفنا الزمن الذي استغرقته رحلة إبراهيم حتى وصل أرض كنعان واستقراره فيها بعض الوقت، فإن ذلك يعني أن إبراهيم قد شارف على الثمانين عاماً وامرأته شارفت على السبعين.

وإذا عدنا إلى الإصحاح الثاني عشر نرى التوراة تقول: (وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراي امرأته إني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر فيكون إذا

رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته فيقتلونني ويستبقونك قولي إنك أختي ليكون لي خير بسببك) وتتابع (فحدث لما دخل إبرام لمصر أن المصريين رأوا المرأة حسنة جداً ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون. فأخذت المرأة إلى بيت فرعون فصنع إلى إبرام خيراً بسببها وصار له غنم وبقر حمير وعبيد وإماء وأتن وجمال).

فالتوراة التي دوّنها أحبار اليهود غفلت أو هي نسيت أن سارة امرأة هرمة شارفت على السبعين فكيف يقولون عنها إنها حسنة جداً؟.

ويستشف أيضاً أن إبراهيم ذهب إلى مصر ليتاجر بجمال زوجته ليحصل على الغنم والبقر والحمير والعبيد. وهذا الكلام مرفوض من أساسه لأن زوجته لم تكن جميلة وهي التي شارفت على الهرم. ثم حاش لإبراهيم أن يعتمد مبدأ الغاية تبرر الوسيلة فيجعل امرأته وسيلة ليحصل على الغنم وبقية الماشية والعبيد.

يقول ابن حزم الأندلسي (ومن المحال أن تكون في هذا السن تفتن ملكاً)[1].

وهذا لم يأت على ذكره القرآن الكريم لأنه ينافي أبسط قواعد النبوة وقوانينها الإلهية.

ويبدو أن إبراهيم لم يطل الإقامة في الأرض المباركة بسبب حدوث جوع فيها. والتوراة تنص على أنه هاجر إلى مصر ومكث فيها مدة. ثم ما لبث أن عاد إلى الأرض المباركة وقد حمل معه بضاعته إلى جانب جارية اسمها هاجر كانت سارة قد اتخذتها جارية لها بعد عودتها من مصر ثم أهدتها لزوجها إبراهيم لينجب أولاداً لأنها شاخت ويئست من الحمل والإنجاب.

تقول التوراة في ذلك: (وأما ساراي امرأة إبرام فلم تلد له. وكانت لها جارية مصرية اسمها هاجر فقالت ساراي لأبرام هو ذا الرب قد أمسكني عن الولادة ادخل على جاريتي لعلي أرزق منها بنين فسمع إبرام لقول ساراي. فأخذت ساراي امرأة إبرام هاجر المصرية جاريتها من بعد عشر سنين لإقامة إبرام في أرض كنعان وأعطتها

---

(1) ابن حزم الأندلسي الفصل بين الملل والأهواء والنحل صفحة 225 المجلد الأول.

لأبرام رجلها زوجة له فدخل على هاجر فحبلت) إصحاح 16 .

ولم يشر القرآن الكريم إلى رحلة إبراهيم لمصر وزواجه من هاجر . إنما تحدث عن قصة ذبح إسماعيل ثم بناء الكعبة وهذا ما سنطلع عليه في حينه .

ونستطيع أن نبين الأحداث التي مرت بإبراهيم وهو في الأرض المباركة من خلال آيات القرآن الكريم ومن خلال ما أوردته التوراة .

1 ـ زواجه من هاجر وولادة إسماعيل عليه السلام .

2 ـ قصته مع لوط وتدمير سادوم وعامورَة من قبل ملائكة الرب .

3 ـ بشرى الملائكة لزوجته سارة بإنجاب ولد .

عقيدة إبراهيم في التوراة والقرآن:

تظهر أول علاقة بين النبي إبراهيم وبين الله حسب ما ورد في التوراة عندما قال له الرب اذهب من أرضك ومن عشيرتك إلى آخر المقطع 4 من الإصحاح الثاني عشر . ثم يظهر الرب لإبرام وقال له (لنسلك أعطي هذه الأرض . ثم بعد اعتزال لوط عنه ظهر له الرب وقال ارفع عينيك وانظر إلى الموضع الذي أنت فيه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً لأن جميع الأرض التي أنت ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد . وأجعل نسلك كتراب الأرض... فنقل إبرام خيامه وأتى وأقام عند بلوطات ممرا التي في حبرون) .

ثم تقول في الإصحاح الخامس عشر (بعد هذه الأمور صار كلام الرب إلى إبرام في الرؤيا قائلاً لا تخف يا إبرام أنا ترس لك أجرك كثير جداً فقال إبرام أيها السيد الرب ماذا تعطيني وأنا ماض عقيماً... فآمن بالرب فحسبه له برا وقال له أنا الرب الذي أخرجك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض لترثها... ثم في ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقاً قائلاً لنسلك أعطي هذه الأرض . .) .

وقال الله لإبراهيم وأما أنت فتحفظ عهدي أنت ونسلك من بعدك في

أجيالهم. هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك. تُختن كل ذكر منكم. فتختنون في لحم غرلتكم فيكون علامة عهد بيني وبينكم.

ثم تقول: ولأني عرفته ولكي يوصي بنيه وبيته من بعده أن يحفظوا طريق الرب ليعملوا براً وعدلاً فمن الملاحظ في هذه النصوص أن علاقة الرب بإبراهيم علاقة وعد بمنحه أرض كنعان له ولنسله من بعده. وتكاد تقتصر العلاقة بينهما على ذلك الوعد. والواضح أيضاً أن هذه العلاقة ليست علاقة تبليغ رسالة التوحيد إلى الناس.

والواقع أن دور إبراهيم الأهم هو الدعوة لديانة التوحيد بين قومه الكلدانيين أولاً وقد ركز القرآن الكريم على هذه الناحية أشد التركيز. ولم يركز على نسبه أو علاقته الجسدية بأولاده من بعده. إنما كان التركيز دقيقاً على حفظ عقيدته وانتقالها منه لأولاده وأحفاده.

وتتضح شريعة النبي إبراهيم وعقيدته من خلال آيات كثيرة. وتوضح أنْ لا شريعة قبل النبي نوح عليه السلام. أما الأنبياء الذين بعثوا بعد نوح كانوا على شريعته إلى بعثة إبراهيم، وبعدها على شريعة إبراهيم إلى بعثة موسى وهكذا.

والأنبياء أصحاب الشرائع وأولو العزم هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام وهذا ما دلت عليه الآية الكريمة من سورة الأحزاب ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: 7].

غير أن نبوة النبي إبراهيم كانت عالمية لم تقتصر على منطقة واحدة أو على قوم دون غيرهم حيث أن إبراهيم انتقل بديانته من أور إلى كنعان إلى مكة. ومن شعب الرافدين. إلى شعب الأرض المباركة. ثم إن الأنبياء من بعده اتبعوه واتبعوا ملّته.

يقول تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: 131].

ويقـــول تعـــالى : ﴿ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : 132].

ويقـــول تعـــالى : ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ [طه : 98].

وفي ســـورة الأنعـــام 79 : ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

وفي ســـورة النحـــل120 : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ .

وفي ســـورة آل عمـــران : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِى إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

والسيرة التوحيدية للنبي إبراهيم تسير على نسق واضح . ففي سورة مريم تقول الآية الكريمة إن إبراهيم كان نبياً : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ [مريم : 41].

وفي السورة نفسها تذكر الآيات الكريمة أن إبراهيم توجه إلى والده بالنصح كي يبتعد عن عبادة الأصنام والشيطان ويحثه على عبادة الله الواحد .

وفي سورة الأنبياء نرى فيها إبراهيم يرفض عبادة الأصنام ويتعرض للعدوان فينجيه الله .

وفي سورة الصافات . يتابع إبراهيم محاربة الكفر وعبادة قومه .

وأخيراً توضح الآيات الكريمة أن إبراهيم لم يكن يهودياً أو نصرانياً إنما كان حنيفاً مسلماً.

ويقول تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ وهذا يدلنا على أن الله سبحانه أنزل على إبراهيم عليه السلام صحفاً فيها تعاليم العقيدة الحنيفية. وأهمها ما ورد في سورة (الأعلى) بقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾.

ويقول تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: 124].

أما قوله: تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٦٧ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 67]. فإن فيه وضوحاً تاماً حول علاقة إبراهيم باليهود والنصارى. فإذا كان النبي موسى عليه السلام أول نبي لليهود فإن لليهود أنبياء معروفين هم موسى وداود وسليمان وعيسى وزكريا ويحيى والياس وهارون وأيوب عليهم السلام أما إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب ويوسف فهم أنبياء حنيفيون وهذا ما أكدت عليه آيات القرآن الكريم في أكثر من سورة. ولم تكن رسالتهم مقتصرة مغلقة. وتسمية حنيفيين، ليست ميزة تفضيلية على الأنبياء إنما هي تسمية لأنبياء ما قبل التوراة.

والذين يقولون بأن اليهود على دين إبراهيم لا يدركون معاني القرآن ولا مقاصدها. حتى يعقوب الذي أطلق عليه (إسرائيل) كان حنيفياً على ملة جده إبراهيم وليس لليهود علاقة به.

أما تعاليم صحف إبراهيم فهي التي نراها في القرآن الكريم والتي طبقها رسول الله ﷺ وهي تعاليم التوحيد والإنذار وتبيان الجزاء والعقاب وتوضيح طريق الخير من طريق الشر، غير أن الصحف التي أنزلت على إبراهيم اندثرت بشكلها المكتوب ولم تبق إلا تعاليمها التي بثها إبراهيم في أبنائه وقومه والناس الذين

اتبعوه. وقضت حكمة الله أن يتوالى بعثُ الأنبياء ليكملوا تعاليم الله بعد أن يضل الناس وينحرفوا عن طريق التوحيد.

وقد جاء في التوراة ما نصه: (وملكي صادق ملك شاليم أخرج خبزاً وخمراً وكان كاهناً لله العلي وباركه وقال مبارك إبرام من الله العلي مالك السماوات والأرض ومبارك الله العلي الذي أسلم أعداءك في يدك) سفر التكوين.

ولم يرد ذكر لملكي صادق في القرآن الكريم غير أن بعض الباحثين قالوا بأن ملكي صادق كان نبياً أو رسولاً موحداً بين شعب كنعان. وبعضهم الآخر رفض ذلك مطلقاً واعتبر التوراتيين قد أدخلوا اسم ملكي صادق إدخالاً. فلا يعقل أن يتلقى إبراهيم مباركة من غيره وهو أبو الأنبياء وأشهر من نادى بديانة التوحيد في عصره.

وفي هذا السياق يرى عباس محمود العقاد أن اليهود تعلموا النبوة الإلهية بلفظها ومعناها من شعوب العرب. ولم تكن لهذه الكلمة عند اليهود لفظة تؤديها قبل وفودهم على أرض كنعان ومجاورتهم للعرب المقيمين في أرض مدين فيقول في كتابه (الثقافة العربية ص 71): (إن كلمة نبي عربية لفظاً ومعنى لأن المعنى الذي تؤديه لا تجمعه كلمة واحدة في اللغات الأخرى والعبرانيون قد استعاروها من العرب في شمال الجزيرة بعد اتصالهم بها، لأنهم كانوا يسمون الأنبياء القدماء بالآباء. ولم يفهموا من كلمة النبوة في مبدأ الأمر إلا معنى الإنذار فكانوا يسمون النبي بالرائي أو الناظر أو رجل الله ولم يطلقوا عليه اسم نبي إلا بعد معرفتهم بأربعة من أنبياء العرب المذكورين في التوراة وهم ملكي صادق وأيوب وبلعام وشعيب الذي يسمونه يثرون معلم موسى الكليم).

وهذا القول يشير إلى أن ملكي صادق ربما يكون نبياً والله أعلم.

بينما يرى آخرون أن التوراتيين أرادوا إقحام ملكي صادق للقائه مع إبراهيم كي يقولوا إن إبراهيم تلقى بعض تعاليمه من غيره.

على أية حال نعود فنقول إن القرآن الكريم لم يشر إلى لقاء بين إبراهيم

وملكي صادق وإن عقيدة إبراهيم التوحيدية هي عقيدة خصها الله في عصره لينادي بها ويدافع عنها ويتفق القرآن مع ما قالته التوراة في أن الله سبحانه وعد إبراهيم بأنه سيكون أمة رغم أن التفسيرين يختلفان في معنى أمة. وعلى الرغم من أن بعض المفسرين المسلمين ذهب إلى تفسير أمة بأن إبراهيم كان إماماً يؤتم به.

ويقول تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: 120].

ويقول النص التوراتي في الإصحاح السابع عشر: (أما أنا فهو ذا عهدي بيني وبينك وأكثرك كثيراً جداً... وتكلم الله معه قائلاً أما أنا فهو ذا عهدي معك وتكون أباً لجمهور من الأمم) سفر التكوين الإصحاح 17.

وتورد التوراة أن إبراهيم انتقل إلى أرض الجنوب وسكن بين قادش وشور وتغرب في جرار.

وقال عن سارة امرأته إنها أخته. وتحدثت عن قصة مشابهة تماماً لقصته التي روتها التوراة عن سفره لمصر وادعائه بأن سارة أخته وليس زوجته.

وهذا بالطبع لم يرد في القرآن الكريم مثله في ذلك مثل القصة الأولى. غير أننا نقول هنا إن عمر إبراهيم آنذاك كان قد بلغ المئة وأن سارة كانت قد بلغت التسعين وقد قالت التوراة (وقال في قلبه هل يولد لابن المئة سنة وهل تلد سارة وهي بنت تسعين سنة) وهذا ما كان في الإصحاح الثامن عشر. وتورد التوراة قصة تغربه في الإصحاح العشرين وهذا التغرب كان في جرار عند الملك أبي مالك حسب قول التوراة.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا ما الدافع عند أبي مالك ليطلب سارة وهي امرأة عجوز عُمرها تسعون سنة؟.

إننا نعتقد أن قصة إبراهيم مع أبي مالك ليست إلا تلفيقاً توراتياً صنعه وهمُ أحبارهم إما عن جهل بالأمور. وإما عن قصد يريدون مَن ورائه إثبات أن الله أنزل

معجزاته لأجل سارة التي ستكون أم إسحق، النبي الذين يدعون انتسابهم له ولابنه يعقوب من بعده.

ونستطيع أن نقول: إن المقام لم يُطل بإبراهيم في أرض واحدة فهو ينتقل من مكان إلى مكان ومن بلد لبلد وليس ذلك إلا بسبب تكليفه من الله عز وجل بنشر ديانة التوحيد بين الناس. وليس بسبب تجارة الأغنام والأبقار كما تدعي التوراة. وكما قلنا سابقاً إن عمل إبراهيم بالتجارة ليس شيئاً غريباً ولكن الغريب في الأمر أن تتنكر التوراة لدعوته التي هي سبب سفره وتنقله الدائم في أرجاء الشام والجزيرة العربية.

إبراهيم ولوط عليهما السلام:

تتداخل شخصية النبي إبراهيم مع النبي لوط عليهما السلام ولا خلاف في أن لوطاً هو ابن أخي إبراهيم وذلك حسب ما ذكرت التوراة وحسب ما قاله المفسرون المسلمون.

ويبدو من خلال الآيات القرآنية الكريمة أن صلة قوية تربط الشخصيتين ببعضهما. إذ تبدأ هذه الصلة منذ أن نجى الله إبراهيم من قومه في وادي الرافدين.

يقول تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 71].

وتوضح التوراة هذه الصلة إذ تبين أن لوطاً هو ابن أخي إبراهيم لكنها لم توضح لم هاجر معه دون سائر أقاربه. فالذين هاجروا مع إبراهيم هم لوط وسارة وبعض من آمن بعقيدة إبراهيم.

غير أن القرآن الكريم يوضح أن هجرة لوط مع عمه كانت هجرة إلى الله وفراراً بدينه وعقيدته يقول تعالى في سورة العنكبوت الآية 26: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

أما في التوراة فيأتي في سفر التكوين الإصحاح الثاني عشر: (فذهب إبرام كما قال له الرب وذهب معه لوط. وتقول فأخذ إبرام ساراي امرأته ولوطاً ابن أخيه وكل مقتنياتهما).

وفي الإصحاح 13: (فصعد إبرام من مصر هو وامرأته وكل ما كان له ولوط معه إلى الجنوب).

ولوط السائر مع إبرام كان له أيضاً غنم وبقر وخيام، ولم تحتملهما الأرض أن يسكنا معاً. فحدثت مخاصمة بين رعاة مواشي إبرام ورعاة مواشي لوط. وكان الكنعانيون والفرزيون حينئذ ساكنين في الأرض. فقال إبرام للوط لا تكن مخاصمة بيني وبينك لأننا نحن أخوان. اعتزل عني إن ذهبت شمالاً فأنا يميناً وإن يميناً فأنا شمالاً.

فرفع لوط عينيه ورأى كل دائرة الأردن أن جميعها سقي قبلما أخرب الرب سدوم وعمورة فاختار لوط لنفسه كل دائرة الأردن. وارتحل لوط شرقاً فاعتزل الواحد عن الآخر. إبرام سكن في أرض كنعان ولوط سكن في مدن الدائرة. ونقل خيامه إلى سدوم. وكان أهل سدوم أشراراً وخطاة لدى الرب جداً.

إلى هذا الحد نتوقف عند الجزء الأول من دراسة شخصية لوط المرتبطة بشخصية إبراهيم.

في القرآن الكريم يتضح أن إبراهيم اتجه إلى الأرض المباركة ومعه لوط وسارة. وأن لوطاً آمن بعقيدة التوحيد وأعلن أنه مهاجر إلى الله. وليس لغاية أخرى.

وفي التوراة يرافق لوط إبراهيم في هجرته.

لكن التوراة ترى أن لوطاً كان يمتلك غنماً وبقراً وخياماً ولكثرة أعداد الحيوانات التي معه لم تحتمله الأرض مع إبراهيم. والقارئ لهذا النص يتبادر له أن كلاً منهما كان يمتلك مئات الرؤوس من الحيوانات. وعلى ذلك يسأل السائل من أين حصل لوط على هذه الأعداد من الغنم والبقر؟ هل جلبها معه من حاران؟

أم حصل عليها بهذه السرعة وكثرت حتى ضاقت به وبإبراهيم الأرض؟

حقيقة الأمر أن الانفصال الذي تم بين إبراهيم ولوط ليس انفصالاً أبدياً. فإبراهيم استقر في الخليل ولوط استقر في دائرة الأردن عند البحر الميت والمسافة بينهما ليست بعيدة. أما لماذا افترقا فالأسباب والغايات واضحة في القرآن الكريم. الدعوة لعقيدة التوحيد وتبليغ رسالته. فإبراهيم يدعو في منطقة ولوط يدعو في منطقة أخرى. وقد أوردت التوراة وأورد القرآن الكريم أن شعب سدوم وعمورة كان شعباً شريراً يأتي الفواحش.

ولما كانت المنطقة التي يقطنها إبراهيم عليه السلام قريبة من المنطقة التي يسكنها لوط عليه السلام فإنهما كانا يلتقيان باستمرار ويتواصلان. وسنرى الجزء الثاني من سيرة لوط وكيف كان يتم الاتصال بينهما.

ذهب لوط في مهمته الشاقة ليهدي قوم سدوم وعمورة.

تقول التوراة: (ونقل خيامه إلى سدوم وكان أهل سدوم أشراراً وخطاة لدى الرب جداً. وتتابع: فجاء الملاكان إلى سدوم مساء وكان لوط جالساً في باب سدوم فلما رآهما لوط قام لاستقبالهما وسجد بوجهه إلى الأرض).

(وقبلما اضطجعا أحاط بالبيت رجال المدينة. رجال سدوم من الحدث إلى الشيخ.... فنادوا لوطاً وقالوا له أين الرجلان اللذان دخلا إليك الليلة أخرجهما إلينا لنعرفهما. فخرج إليهم لوط إلى الباب وأغلق الباب وراءه. وقال لا تفعلوا شراً يا إخوتي هو ذا لي ابنتان لم تعرفا رجلاً أخرجهما إليكم فافعلوا بهما كما يحسن في عيونكم. وأما هذا الرجلان فلا تفعلوا بهما شيئاً لأنهما دخلا تحت سقفي فقالوا ابعد إلى هناك).

(وقال الرجلان للوط من لك أيضاً ههنا وبنيك وبناتك وكل من لك في المدينة أخرج من المكان لأننا مهلكان هذا المكان).

(وإذ أشرقت الشمس على الأرض دخل لوط إلى صوغر فأمطر الرب على

سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من عند الرب من السماء وقلب تلك المدن وكل الدائرة. ونظرت امرأته من ورائه فصارت عمود ملح).

(وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه فسكن في المغارة هو وابنتاه. وقالت البكر للصغيرة أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة أهل الأرض. هلم نسقي أبانا خمراً ونضطجع معه فنحيي من أبينا نسلاً. فسقتا أباهما خمراً ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة إني قد اضطجعت البارحة مع أبي. نسقيه خمراً الليلة أيضاً فأدخلي اضطجعي معه...).

(وقامت الصغيرة واضطجعت معه ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. فحبلت ابنتا لوط من أبيهما فولدت البكر ابناً ودعت اسمه موآب وهو أبو المؤابيين إلى اليوم والصغيرة أيضاً ولدت ابناً ودعت اسمه بني عمي وهو أبو بني عمون إلى اليوم).

ولم تأت التوراة على ذكر لوط بعد ذلك كيف انتهت قصته كيف كانت دعوته، وحياته وموته بعد تدمير مدن الدائرة. كل ذلك لم تأت التوراة على ذكره فغاب غياباً مفاجئاً مدهشاً وتقول التوراة: (وقال الرب إن صراخ سدوم وعمورة قد كثر وخطيتهم قد عظمت جداً. أنزل وأرى هل فعلوا بالتمام حسب صراخهما الآتي وإلاّ فأعلم. وانصرف الرجال من هناك وذهبوا إلى سدوم. وأما إبراهيم فكان لم يزل قائماً أمام الرب).

وتتحدث التوراة عن استقبال إبراهيم للملكين حيث ذبح لهما عجلاً وصنع لهما خبزاً فأكلا... وبشرا سارة ثم انطلقا ليدمرا سدوم وعمورة.

ويأتي تسلسل الأحداث في القرآن الكريم كما ورد في الآيات الكريمة التالية:

يقول تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾

فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: 80 ـ 84].

وفي سورة هود: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [هود: 69 ـ 72].

وفي سورة هود أيضاً: ﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ [هود: 76].

وفي سورة هود: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِى ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: 76 ـ 83].

ويقول تعالى: ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ

وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر 58 ـ 75].

ويقول تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: 160 ـ 174].

وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: 10].

ويقول تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: 28 ـ 30].

إذاً فلوط آمن برسالة إبراهيم ثم هاجر معه بأمر من الله. ثم افترق عنه وراح يدعو لديانة التوحيد والأخلاق الحميدة في أقوام سدوم وعمورة. وكانت هذه المدن تسمى الدائرة وأهلها يأتون أبشع الفواحش ويصرح القرآن الكريم أن لوطاً

هو نبي ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: 133]. ويقول تعالى: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء: 75].

وتوضح الآيات الكريمة جداله مع قومه وإنكارهم لدعوته وتهديدهم له بإخراجه من الأرض التي يسكنون فيها وبسبب طهارته كادوا يقتلونه لأنهم اعتادوا النجاسة وإتيان الرجال والنساء.

وتتحدث الآيات عن مجيء الملائكة لإنذار لوط بأن الله سيتم أمره وعلى لوط أن يرحل ليلاً أو قبيل الصبح. ويهرب لوط مع بعض من أهله ومن آمن معه وتلتفت امرأته فيسقط الله النار عليها فتحرق. ويقلب الملائكة عالي الأرض إلى سافلها.

ولم تحدد الآيات الكريمة من بالذات الذين نجاهم الله مع لوط، ، بينما ترى التوراة أنه هو الوحيد من الرجال الذي نجاه الله ومعه من النساء ابنتاه.

وإذا عدنا للأحداث من بدايتها نرى فروقاً واضحة بين ما ذكره القرآن الكريم وما ذكرته التوراة فعندما جاء الملائكة ليخبروا إبراهيم عليه السلام بأمر الله القاضي بتدمير سدوم وعمورة قدم لهم إبراهيم طعاماً من لحم العجل وبعض الأطعمة الأخرى. وقالت التوراة إنهم أكلوا من هذا الطعام. ومعروف أن الملائكة لا تأكل ولا تشرب فهي مخلوقات نورانية خلقها الله للعبودية ونزعت منها الشهوة للمأكل والمشرب وغير ذلك من الأمور الخاصة بالبشر.

يقول ابن حزم: في هذا الفصل آيات من البلاء شنيعة نعوذ بالله من قليل الضلال وكثيره فأول ذلك قول التوراة إن الله تعالى تجلى لإبراهيم وأنه رأى الثلاثة النفر فأسرع إليهم وسجد وخاطبهم بالعبودية. فإن كان أولئك الثلاثة هم الله فهذا هو التثليث بعينه بلا كلفة بل هو أشد من التثليث لإنه إخبار بشخوص ثلاثة. وإن كان أولئك الثلاثة ملائكة فعليهم في ذلك فضائح عظيمة. أولها: من المحال والكذب بأن يتجلّى الله تعالى له وإنما تجلّى له ثلاثة من الملائكة. ثانيهما أنه يخاطب أولئك الملائكة بخطاب الواحد إذ يقول للثلاثة يا سيدي. وثالثها سجوده للملائكة.

ورابعها خطابه لهم بأنه عبدهم. وخامسها يأخذ قليلاً من ماء ويغسل أرجلهم. وسادسها أن إبراهيم لا يجهل أن الملائكة لا تشتد قلوبهم بأكل كسر الخبز. سابعها إخبار التوراة أن الرجال الثلاثة أكلوا الخبز والشوى والسمن واللبن. وحاشى أن يكون هذا خبراً عن الله تعالى لا ولا عن ملائكته)[1].

ويوضح القرآن الكريم المسألة خير وضوح. يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: 69 ـ 70].

فخوف إبراهيم نابع من إحساسه الذي طرأ فجأة بأن هناك أمراً عظيماً جاءت الملائكة لأجله وقد كررت التوراة القول بأن الملائكة أكلوا الخبز والفطير عند لوط وأنه سجد لهم وتعبد. وهذا لم يرد في القرآن الكريم إنما الذي ورد قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ إلى آخر الآيات والحقيقة الموافقة للمنطق أن لوطاً خاف على ضيوفه من قومه وأدرك أن قومه لو رأوهم لحاولوا الاعتداء عليهم.

وتقول التوراة (وقال لا تفعلوا شراً يا إخوتي هو ذا لي ابنتان لم تعرفا رجلاً أخرجهما إليكم فافعلوا بهما كما يحسن في عيونكم).

وتقول: (فقال الرجلان للوط من لك أيضاً ههنا أصهارك وبناتك وبنيك وكل من لك في المدينة أخرج من المكان لأننا مهلكان هذا المكان).

وظاهر قول التوراة أن لوطاً عرض على الرجال ابنتيه ليفعلوا بهما ما يحلو لهم على ألا يتعدوا على ضيوفه.

ويوضح القرآن الكريم موقف لوط تجاه هذا الحدث إذ يقول تعالى: ﴿قَالَ

---

(1) ابن حزم الأندلسي، الفصل بين الملل والأهواء والنحل، صفحة 220 ـ 221.

يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ [هود : 78-79] .

يقول عبد الوهاب النجار : إن لوطاً عرض على القوم بناته عرضاً سابرياً أي عرضاً غير مؤكد لا يقصد به الجد وأن يعطيهم بنتيه للزنا . ولكنه عرض ابنتيه اعتماداً على أنهم يستحيون منه ويخجلون ليكفوا عن خزايته في ضيفه كما تقول لرجل يضرب آخر وأنت تحجزه عنه اضربني أنا لأنك تقول هذا القول وأنت جد واثق بأنه لن يضربك ولو علمت أنه يضربك حقيقة ما قلت هذا القول ولا تعرضت للشفاعة وهذا القول أورده كثير من المفسرين كأبي السعود والفخر الرازي والأصفهاني وغيرهم[1] .

وإضافة لذلك فإن إيراد التوراة قولها أصهارك وبنيك وبناتك . فإن ذلك يعني أن للوط بنات متزوجات قد تكون ابتاه فيهن فكيف يقبل الأصهار بذلك الشين والعار وكيف كان موقفهم حين عرض لوط ابنتيه لقومه ليفعلوا بهما ما يحلو لهم؟ .

وعندما تقول التوراة إن لوطاً صعد إلى الجبل لم يكن معه سوى ابنتيه . والسؤال يطرح نفسه هو كيف يطلب الرجلان أن يأخذ لوط أصهاره وبنيه وبناته . ثم لا تأتي على ذكر من نجاهم الله مع لوط سوى ابنتيه؟ ثم تقول التوراة : وقال الرجلان للوط : من لك أيضاً ههنا) 19 : 2 .

يقول ابن حزم : (لا يخلو أصهار لوط وبنوه وبناته الناكحات من أن يكونوا صالحين أو طالحين فإن كانوا صالحين فقد هلكوا مع الطالحين وبطل عقد الله تعالى مع إبراهيم في ذلك وحاشى لله من هذا وإن كانوا طالحين فكيف تأمر الملائكة بإخراج الطالحين وهم كانوا مبعوثين لهلاكهم فلابد من الكذب في أحد الوجهين)[2] .

ونتوقف عند قول التوراة (وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه

---

(1) عبد الوهاب النجار قصص الأنبياء ، صفحة 148 .

(2) ابن حزم الأندلسي ، الفصل بين الملل والأهواء والنحل صفحة 223 .

معه وسكن في المغارة هو وابنتاه إلى آخر قولها إنه زنا بهما وحملتا ثم أنجبتا ولدين الخ....).

وحاشى أن يكون قد وقع مع لوط مثل هذا الأمر. إن لوطاً آمن برسالة إبراهيم التوحيدية وأخلاقها وتربيتها الصافية وقد نجاه الله مع أهله الذين آمنوا معه وتربوا تربيته ولو كانت الابنتان الوحيدتان للوط لم تؤمنا لأهلكهما الله مع من أهلك. والواقع أن للوط بنات أخريات حسب قول التوراة. ونتساءل كيف يجوز لنبي أن تسكره ابنتاه ثم يضاجعهما دون أن يشعر. ألم يشعر لوط حقاً بشربه للخمر ألم يتذوقه؟ ألم يدرْ برأسه مفعوله، ألم يشعر لوط بممارسة الجنس مع ابنتيه؟. ثم لنقل أنه كان غير واعٍ غير مدرك لما يفعل. ولكن ماذا كان رد فعله عندما كبر الحمل في رحم كل منهما؟ ألم يسألهما عن هذا المنكر ألم يسألهما كيف حملتا؟.

ثم إذا كان لوط نبياً حقاً ألا يعصم من هذه الأفعال كلها؟ إنه كان نبياً وحاشى لنبي بعد الرسالة خاصة عدا عن قبلها أن يخدع هذه الخدعة الكبرى فيسكر ثم يزني بابنتيه. لقد كانت آيات القرآن الكريم واضحة صريحة فهي تتحدث عن لوط وقومه. هو نبي يدعو إلى الوحدانية والخير والبعد عن الفاحشة. وقد أنذر قومه فما استجابوا. فكانت عاقبتهم الدمار والحرق بالنار فدمرهم الله وكانت زوجته ممن دمروا وأحرقوا كل ذلك ليبين الله سبحانه أن أكثر الناس قرباً من الإنسان وهي الزوجة لا تستحق سوى ذلك العقاب عندما ترفض الإيمان وتخون أمانة زوجها. لقد كان دور زوجته أشد كفراً من دور قومها فهي حسب الروايات من أخبر القوم بأن رجلين غريبين قد دخلا بيت زوجها وكأنها تحث القوم على الفاحشة حتى ولو كانت هذه الفاحشة ستقع مع ضيفين عند زوجها.

وتقول التوراة: (فحبلت ابنتا لوط من أبيهما فولدت البكر ابناً ودعت اسمه موآب وهو أبو الموآبيين إلى اليوم والصغيرة أيضاً ولدت ابناً ودعت اسمه بني عمي وهو أبو بني عمون إلى اليوم). نلاحظ أن التوراة أنجبت لابنتي لوط ولدين ذكرين لابنتين وكأن القدرة الإلهية تدخلت كي تنجبا ولدين ذكرين وليس بنتين. ثم

سمّت الأول موآب والثاني بن عمي لتقول إن الموآبيين الذين سيحاربهم موسى في سفر الخروج هم أبناء زنى وممن؟ من لوط وابنته. ثم لتقول إن أهل عمان ـ عمّون أيضاً هم أولاد زنى. وكل ذلك التلفيق لتحط من قدر الأنبياء أولاً ثم لتحط من شأن الشعوب المجاورة لأرض كنعان ثانياً. إن قصة سكر لوط تذكرنا بقصة سكر نوح. فنوح تعرّى ولوط زنا.

وإبراهيم ذهب إلى فرعون وأبي مالك ليتاجر بجمال زوجته المزعوم تلك الزوجة التي بلغت من العمر عتيا. فهذا هو دأب التوراة في تشويه الأنبياء لأن لا صلة بين التوراتيين والأنبياء سوى العداء السافر تارة والمبطن تارة أخرى.

كيف دمر قوم لوط وماذا تقول الشواهد والدراسات والاستنتاجات حول مصير هؤلاء القوم؟.

تقول التوراة: (وإذا أشرقت الشمس على الأرض دخل لوط إلى صوغر فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من عند الرب من السماء وقلب تلك المدن وكل الدائرة ونظرت امرأته من ورائه فصارت عمود ملح).

ويقول القرآن الكريم: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: 82].

ويقول تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۝٧٣ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ۝٧٤ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: 73ـ 75].

ويقول تعالى: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ۝١٧٢ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [الشعراء: 172 ـ 173].

نلاحظ أن هناك اتفاقاً بين التوراة والقرآن على أن مصير قوم لوط ذو شقين:

1 ـ التدمير وقلب الأرض بهم.

2 ـ حرقهم بنار من السماء أمطرها الله عليهم.

يقول عبد الوهاب النجار: أعتقد أن البحر الميت المعروف الآن ببحر لوط أو بحيرة لوط لم يكن موجوداً قبل هذا الحادث. إنما حدث من الزلزال الذي جعل عالي البلاد سافلها وصارت أخفض من سطح البحر بنحو أربع مائة متر وقد جاءت الأخبار بأنهم اكتشفوا آثار مدن لوط على حافة البحر الميت وواقع الأمر أن كثيراً من الأمور المتعلقة بالبحر الميت تثير التساؤل والاندهاش وبعض الاستنتاجات، فهذا البحر أو البحيرة مغلق من جميع جوانبه. وينخفض عن سطح البحر حوالي 400 متر وهو أخفض منطقة في العالم ثم إن نسبة الملوحة العالية جداً فيه حرّمت الحياة الحيوانية والنباتية. فهو خال من أي مؤهل لحياة الحيوان أو النبات. ويطلق عليه عدة أسماء وأشهرها بحر لوط والذي أطلق عليه الميت هم اليونان، وحوله جبال يعلو بعضها الى 1500 متر وتنحدر في أكثر الأماكن إلى شاطئه غير أنها تبتعد عنه قليلاً في قسمه الجنوبي عند جبل اصدم.

وينقذف زفت من قعر طرفه الجنوبي عند حدوث الزلزال. وبجانبه ينابيع ساخنة من جملتها عين غوير ودرجة حرارتها مئة في شهر كانون الثاني.

وترى الكشوف الجيولوجية أن المنطقة التي تقع جنوب البحر الميت قد اكتست بالملح وربما كان سبب هذا انفجار تحت سطح الأرض حدث بعمل إلهي.

ملاحظات:

عندما تحدثت التوراة عن زنا تمّ بين لوط وابنتيه ادعت أن ابنتيه قد حملتا وولدتا ولدين وهما موآب وبني عمي. ويلاحظ أن من بين أجزاء كتبهم ما يسمّى (دليل السلوك) الذي اكتشف مع ما اكتشف في خربة قمران من مخطوطات البحر الميت وهذا الدليل فيه توجيهات نظامية وعقوبات. ثم نرى أن من بين تلك المخطوطات مخطوطة لامك باللغة الآرامية وتتضمن تعليمات لإدارة الحرب بين أسباط لاوي ويهودا وبنيامين المدعوين بأبناء النور والأدوميين والموآبيين والعمونيين والفلسطينيين المدعوين بأبناء الظلام. فالتوراة تقول عن نسل ابنتي

لوط موآب وعمون بأنهم من أبناء الظلام. ولا يخفى على القارئ كيف يربط الأحداث التوراتية المقصودة ليصل إلى استنتاج واضح.

ملاحظة ثانية لابد من ذكرها:

لو حققنا بشكل دقيق في الفاحشة التي كان يرتكبها قوم لوط لأدركنا وعرفنا أنها من أبشع أنواع الممارسات الجنسية الشاذة. وقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن مرتكب هذه الفاحشة يصاب بأمراض خبيثة قاتلة ومنها مرض الإيدز (فقدان المناعة) وقد أكدت جميع التقارير الطبية العالمية أن لا دواء مكتشف لعلاج الإيدز حتى هذه اللحظات، وأن المصاب بهذا المرض أو المهيأ له ينقل الفيروس الآثم إلى الآخرين عن طريق الشذوذ أو نقل الدم. وأن الذي يصاب به لا يلبث طويلاً ثم يموت. وقد أكدت التقارير الطبية أن أفضل حل للتخلص من المصاب بالإيدز بعد وفاته هو حرق جثته حرقاً تاماً. ولو دُفن في التراب فإن الجثة تتفسخ ولكن الفيروس المسبب للإيدز لا يموت ومن الممكن أن ينتقل إلى أشخاص أحياء عن طريق التربة.

والذي يلفت نظرنا أن قوم لوط أبيدوا جميعاً سوى لوط ومن آمن معه ولم يرتكب تلك الفواحش. وقد نصت التوراة ونص القرآن الكريم على أن تدمير قوم لوط تم أولاً بتدمير المدن ومن فيها حيث قلبت رأساً على عقب ثم أمطر الله عليهم وعلى من حاول الهرب منهم ممن كانوا على أطراف المدن بحجارة من سجيل وهي ملتهبة حتى أبيدوا جميعاً حرقاً بالنار والكبريت. ونلاحظ أن مياه البحر الميت التي غمر قسم منها مدن قوم لوط مياه مالحة مرة لاذعة ولا حياة لأي شيء فيها حتى الجراثيم الصغيرة لا يمكن أن تجد فيها حياة.

وكما قلنا لم تشر التوراة وأشار القرآن الكريم إلى نجاة بعضٍ من قوم لوط.

وحسب قول التوراة سوى لوط وابنتيه وحسب النص القرآني يقول تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: 34].

ولعلنا جميعاً نتساءل أليس عقاب قوم لوط كان حياة لكافة الناس؟. أليس الحرق بالنار هو الوسيلة الناجحة لأمراض الشذوذ الجنسي؟.

ثم أليست آيات القرآن الكريم كشفاً ربانياً سابقاً على علوم العلماء والأطباء؟ حينما عاقب المرضى بأمراض الشذوذ بالحرق والإبادة لئلا ينشروا المرض بين الناس؟ قد يكون ذلك، والله أعلم.

على أية حال نحن نتساءل ونفترض افتراضات وإلى أن يصل الجيولوجيون وعلماء البيئة والآثار إلى نتائجهم تبقى افتراضاتنا قابلة للأخذ والرد.

إبراهيم مرحلة جديدة وعصر جديد:

يتفق التوراة والقرآن الكريم على أن الله منح إبراهيم ولدين الأول هو إسماعيل والثاني إسحق ويتفقان على أن الملائكة بشرت سارة بعد أن شاخت بأنها ستلد ولداً بعد أن تحبل وسيكون هذا الولد مباركاً. ويتضح من خلال كلام التوراة أن إسماعيل بلغ الثالثة عشرة من عمره حين وُلد أخوه إسحق.

وعندما يصبح إسماعيل في مقتبل الشباب يصدع لأمر ربه ويذهب إبراهيم إليه في مكة ليبنيا الكعبة المشرفة وهذا ما نراه في القرآن الكريم وتنكره التوراة.

وسنرى كيف تسير الأحداث في التوراة والقرآن لندرك أوجه الاختلاف ثم نبين الحق من الباطل وما يتوافق مع العقل والمنطق وما لا يتوافق.

جاء في سفر التكوين الإصحاح 16 (وأما ساراي امرأة إبرام فلم تلد له وكانت لها جارية مصرية اسمها هاجر فقالت ساراي لإبرام هو ذا الرب قد أمسكني عن الولادة. أدخل على جاريتي لعلي أرزق منها بنين. فسمع إبرام لقول ساراي فأخذت ساراي امرأة إبرام هاجر المصرية جاريتها. فدخل على هاجر فحبلت).

(فأذلتها ساراي فهربت من وجهها فوجدها ملاك الرب على عين الماء في البرية على العين التي في طريق شور. وقال لها ملاك الرب ارجعي إلى مولاتك

واخضعي تحت يديها. وقال لها ملاك الرب تكثيراً أكثر نسلك فلا يعد من الكثرة. وقال لها ملاك الرب ها أنت حبلى فتلدين ابناً وتدعين اسمه إسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك وإنه يكون إنساناً وحشياً).

(فولدت هاجر لإبرام ابناً ودعا إبرام اسم ابنه الذي ولدته إسماعيل).

وفي الإصحاح 17: (وقال الله لإبراهيم ساراي امرأتك لا تدعو اسمها ساراي بل اسمها سارة وأباركها وأعطيك أيضاً منها ابناً).

(وقال إبراهيم لله ليت إسماعيل يعيش أمامك فقال الله بل سارة امرأتك تلد لك ابناً وتدعو اسمه إسحق وأقيم عهدي معه أبدياً لنسله من بعده. وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً اثني عشر رئيساً يلد وأجعله أمة كبيرة ولكن عهدي أقيمه مع إسحق الذي تلده لك سارة).

(فأخذ إبراهيم إسماعيل ابنه وجميع ولدان بيته وختن لهم غرلتهم وكان إسماعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة حين ختن).

وفي الإصحاح 21: (وافتقد الرب سارة كما قال: وفعل الرب لسارة كما تكلم فحبلت سارة وولدت لإبراهيم ابناً في شيخوخته. ودعا إبراهيم اسم المولود الذي ولدته له سارة إسحق).

(ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذي ولدته لإبراهيم يمزح فقالت لإبراهيم: اطرد هذه الجارية وابنها. لأن ابن الجارية لا يرث مع ابني إسحق. فقبح الكلام جداً في عيني إبراهيم لسبب ابنه).

فبكر إبراهيم صباحاً وأخذ خبزاً وقربة ماء وأعطاها لهاجر واضعاً إياهما على كتفها والولد وصرفها فمضت وتاهت في برية بئر السبع. ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدى الأشجار ومضت وجلست مقابله بعيداً نحو رمية قوس. لأنها قالت لا أنظر موت الولد. فجلست مقابله ورفعت صوتها وبكت وسمع الله صوت الغلام ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها مالك يا هاجر

لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو. قومي احملي الغلام وشدي يدك به لأني سأجعله أمة عظيمة. وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية. وسكن في برية فاران وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر.

وفي الإصحاح 22: (وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم فقال له يا إبراهيم فقال ها أنذا فقال خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحق إلى أرض المريا وأصعده هناك. فأخذ إبراهيم حطب المحرقة ووضعه على إسحق وأخذه وبيده النار والسكين. وكلم إسحق إبراهيم أباه وقال يا أبي هو ذا النار والحطب ولكن أين الخروف للمحرقة فقال إبراهيم الله يرى له الخروف للمحرقة يا بني. فلما أتيا إلى الموضع الذي قال له الله بنى هناك إبراهيم المذبح ورتب الحطب وربط إسحق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب ثم مد إبراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه فناداه الرب من السماء: لا تمد يدك إلى الغلام فرفع إبراهيم عينيه ونظر وإذا بكبش وراءه ممسكاً في الغابة بقرنيه فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضاً عن ابنه).

الإصحاح 25: (وعاد إبراهيم فأخذ زوجة اسمها قطوره فولدت له زمران ويقشان ومدان ومديان ويشباق وشوحاً).

(وهذه أيام سني إبراهيم التي عاشها مائة وخمسة وسبعون سنة وأسلم إبراهيم روحه ومات بشيبة صالحة شيخاً وشبعان أياماً ودفنه إسحق وإسماعيل في مغارة المكفيلة).

أما مجريات الأحداث مع النبي إبراهيم عليه السلام وعلاقته بأولاده وزوجتيه فإنها ترد في القرآن الكريم على الشكل التالي وحسب التسلسل التاريخي الدالة عليه آيات القرآن الكريم.

يقول تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ۝ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ

مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ
لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾
إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ
عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ
نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الصافات: 99 ـ 112].

وفي سورة آل عمران: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ
وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [آل عمران: 84].

وفي سورة هود: ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ
فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ
وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: 72].

وفي سورة الحج: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ
بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج: 26].

وفي سورة إبراهيم: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ
ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ
لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا
فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: 37 ـ 38].

ويقول تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ
مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ
ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ
مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ
ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: 125 ـ 127].

﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: 129].

ففي التوراة تركيز واضح على قصة حقد وضغينة من طرف سارة لهاجر ثم إقامة العهد مع إسحق وليس مع إسماعيل. يطلب إبراهيم من ربه أن يعيش إسماعيل ليباركه الله، لكن الرب يقول لإبراهيم إني سأجعل سارة تحبل وتأتي بولد اسمه إسحق فأقيم معه ونسله العهد وليس مع إسماعيل.

ثم تتضايق سارة من إسماعيل لأنها رأته يمزح فتطلب من إبراهيم طرد إسماعيل وأمه وتردف قولها إن إسماعيل لا يرث مع إسحق لأنه ابن جارية.

ثم زود إبراهيم ابنه إسماعيل وزوجته هاجر ببعض الماء والطعام وصرفها وتاهت في برية بئر السبع ثم جلست في ظل شجرة حتى نفد الماء منها فجاءها ملاك الرب وقال لها قومي احملي الغلام ثم تبصر بئر ماء فتملأ القربة وتسقي الغلام ثم يكبر إسماعيل وتأخذ له أمه زوجة من أهل مصر. أما متى ذهبت وجاءت بزوجة إسماعيل فلم تورد التوراة شيئاً عن ذلك ولم تذكر التوراة عن سكان ـ فاران ـ أو عمّن شاهد هاجر وكيف عاشت وكيف كبر الولد وترعرع.

ثم تورد التوراة قصة الذبيح إسحق حيث يقول الرب لإبراهيم خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحق. فالتوارة تقول عن إسحق وحيدك علماً أنها لم تتوان عن ذكر إسماعيل وكيف أن الرب باركه ووعد إبراهيم أن يكثر نسله.

ويتفق القرآن مع التوراة على أن لإبراهيم ولدين والأكبر هو إسماعيل والأصغر هو إسحق لكن لنر مع التوقف ماذا خلقت التوراة من أوهام متناقضة في تفاصيل الأحداث.

يقول الإمام ابن كثير: فلفظ إسحق هنا مقحمة لأنه ليس هو الوحيد ولا البكر وإنما ذلك هو إسماعيل. وإنما حمل اليهود على هذا حسد العرب فإن

إسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز والذين منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم. وإسحق والد يعقوب وهو إسرائيل الذي (يدّعون) الانتساب إليه فأرادوا أن يجروا هذا الشرف إليهم فحرفوا كلام الله وزادوا فيه[1].

ثم تتحدث التوراة عن أن هاجر أخذت فتاة مصرية لإسماعيل وهذا كلام يجر القارئ إلى الظن أن هاجر أخذت لإسماعيل زوجة مصرية من قومها وعليها فإن إسماعيل ليس له علاقة بالعرب.

ثم يموت إبراهيم ويدفنه إسماعيل وإسحق، أما وقد عرفنا أن إسحق قد عاش مع أبيه إبراهيم إذاً فأين كان يعيش إسماعيل؟ وكيف جاء بعد هذا الغياب أو التغييب الكبير من قبل التوراة. فجأة وبعد انقطاع طويل عن أخبار إسماعيل وأمه يظهر إسماعيل ليدفن أباه مع أخيه إسحق.

لقد بدأت قصة إبراهيم بعد استقراره في الأرض المباركة والجزيرة العربية بعيداً عن أور الكلدانيين بدعائه إلى الله أن يهب له بعد كبره غلاماً من الصالحين فبشره ملاك الرب بغلام حليم. ويكبر الولد ثم يرى إبراهيم أنه يذبحه فأخبره بتلك الرؤيا فلم يعارض الولد وأخذه ليذبحه ثم فداه بكبش عظيم. وبعد أن كبر إسماعيل ولدت سارة إسحق ولو دققنا النظر في الزمن الذي يفصل بين ولادة إسماعيل وولادة إسحق لوجدناه أكثر من 15 عاماً وإسماعيل ختن وكان عمره ثلاثة عشر عاماً ولم يكن إسحق قد وُلد بعد.

وتورد التوراة أن النبي إبراهيم أطال المسير بأمر ربه إلى أن هداه الله إلى وادي مكة حيث لا زرع ولا ماء. وعندما تورد التوراة أن هاجر جلست تحت شجرة فهذا يعني أن المكان غير صحراوي والاحتمال الأكبر فيه ماء لأن الشجر لا يحيا بدونه. والقرآن الكريم يوضح على لسان إبراهيم أنه أسكن من ذريته - إسماعيل - مع أمه في واد غير ذي زرع عند البيت الحرام. وهذا يعني أيضاً أن البيت المحرم كان معروفاً

---

(1) البداية والنهاية جزء 1 ص 159 ابن كثير.

لدى إبراهيم قبل أن يبنيه وإلا فلماذا اختار الله سبحانه أن يبنى البيت في هذا المكان. ثم قال إبراهيم. أسكنتهم ليقيموا الصلاة. ثم يدعو الله أن يجعل أفئدة الناس تهوي إليهم وأن يرزقهم من الثمرات ثم يقول إبراهيم يا رب أنت تعلم ماذا نخفي وماذا نعلن. أي ربنا تعلم ما أضمر من الحزن على فراق ولدي ـ ذريتي.

وتمثل هاجر لقضاء الله وأمره وتتحلى بالصبر حتى نفذ الماء والزاد فصارت تبحث عن الماء مهرولة بين جبلي الصفا والمروه سبع مرات ثم تعود إلى ابنها لتجده يضرب الرمل بقدميه حتى نبع الماء بقدرة الله. فشربت وسقت ابنها. ثم صارت الطيور تحوم في السماء حول الماء فتنبه الرعاة وتنبه رجال القوافل للطير وأدركوا أن الطير لا تحوم إلا على ماء أو طعام فتساءلوا فيما بينهم هل في هذا الوادي ماء. فأجابوا ما علمنا أن بهذا الوادي ماء. فأرسلوا بعض رجالهم ليبشروهم بوجود نبع ماء. فأتوا إلى هاجر وآنسوها. ثم ارتحلت معهم قريباً من الماء حتى شب إسماعيل وكبر وتزوج منهم أي من قبيلة جرهم العربية.

وتقول التوراة كما مر معنا أنه تزوج من مصرية. وقد يكون هذا الكلام صحيحاً، لأن المصادر العربية تورد قصة زواج إسماعيل من اثنتين وذلك بإشارة من أبيه إبراهيم عندما زاره ولم يجده ووجد زوجته وأبدت بخلها وأخبرت إسماعيل بعد أن رجع إلى بيته بأن رجلاً أوصافه كذا وكذا يوصيه بأن يغيّر عتبة بيته. ولم تدرك معنى ذلك فعرف إسماعيل ذلك فطلقها وتزوج من أخرى أبدت كرمها وخيريتها عندما زاره أبوه مرة أخرى ولم يجده ووصى زوجته الثانية أن يحافظ على عتبة بيته، أي أن يحافظ على زوجته، ومن الطبيعي أن إسماعيل سينجب ممن بقيت عنده ودامت ويجدر بنا أن نلاحظ في هذا الصدد الخلاف في عمر إسماعيل عندما ارتحلت أمه به ما بين ما أوردته التوراة وما أورده القرآن. فالتوراة ترى أن إسماعيل أخذ يمزح مع سارة فطلبت من إبراهيم طرده وأمه وهذا يعني أنه كان كبيراً. بينما نستدل من آيات الكتاب المبين أن إسماعيل كان طفلاً صغيراً عندما أخذ يضرب الأرض برجليه وهو لا يعي ما يفعل. ولو كان

إسماعيل كبيراً وفتى في مقتبل العمر لتصرف تصرفاً آخر. فقد يبحث عن البشر. قد يتحدث مع أمه يحثها على الصبر. قد يفعل أي شيء آخر يتناسب مع سنّه. هذا من جانب ومن جانب آخر لا تورد التوراة رحلة هاجر وإسماعيل إلى وادي مكة بل ذكرت أنها وصلت بئر السبع فقط. إذاً فأين الكعبة وبناؤها؟ أين إبراهيم من هذا العمل العظيم.

إن القرآن الكريم يركز على بناء الكعبة من قبل إبراهيم وإسماعيل. وقد جاء النبي إبراهيم إلى إسماعيل وأخبره أن الله أمره ببناء الكعبة وأشار عليه جبريل بالمكان الذي يبنى فيه البيت وراحا يعملان وكلما بنيا حجراً كانا يقولان ربنا تقبل منا أنت السميع العليم. وقد استجاب الله سبحانه لدعاء إبراهيم فجعل الله مكة بلداً آمناً أفاض عليه بالرزق وقد استهوى أفئدة الناس الذين يحجون إليه والذين يودون الحج إليه ومن مِنَ المسلمين لا يرغب بأداء فريضة الحج وزيارة الكعبة والطواف حولها؟ ترى بعض الروايات أن النبي إبراهيم ﷺ أراد أن يضع حجراً مميزاً ليكون علماً للناس فأوصى له جبريل أن يضع الحجر الأسود في ركن من أركان الكعبة. وهذا الحجر كان قد جاء به آدم عليه السلام من الجنة وذلك حسب روايات كثيرة. ومنها ما أخرجه الأزرقي عن عبد الله بن عمر[1].

لقد بنيت الكعبة وسط تقاطع طرق وسقت المياه المارين الرحل ثم استقر حولها بعض الناس. وتكاثروا وجلبوا إليها آخرين حتى أصبحت مأوى عدة قبائل واتسع الحرم وساحته حتى أصبح كما نراه اليوم.

أما لماذا لم تذكر التوراة رحلة إبراهيم إلى مكة وبناء الكعبة مع ابنه إسماعيل فهناك أسباب عديدة:

1 ـ إن محاربة إسماعيل تدخل في صلب المصالح اليهودية بعد غزوهم لفلسطين.

2 ـ إن الذين كتبوا التوراة لم يتمكنوا من طمس مآثر النبي إبراهيم لأن المسيرة

---

(1) السيوطي. الدر المنثور في التفسير المأثور ص 246.

المتعلقة بإبراهيم الخليل لا يمكن أن يضعها سوى أعداء إبراهيم وإلا كيف نفسر العاهات التي ألصقوها بإبراهيم الخليل بالنسبة إلى اتجاره بزوجته في مصر عند فرعون وفي فلسطين عند أبيمالك وبالنسبة إلى جعله شخصية عادية دون هوية حضارية لا بل راعياً في حل وترحال حتى مماته فأين الرسالة وأين مبدأ أصحاب العقائد الذين يقدمون نفوسهم للموت دون التنازل عن مبدئهم.

إن بناء الكعبة من قبل إسماعيل وإبراهيم لا يروق لليهود لأنهم لا يرغبون إلا في احتكار كل أمر هام وتبنّيه، إن القبائل العربية تنتسب إلى إسماعيل وفي مقدمتهم كنعانيو فلسطين، وإسماعيل لم يذهب إلى مصر إنما ترعرع في الصحراء في قبيلة جرهم. لقد سفّه اليهود إسماعيل بداعي أنه ابن جارية[1].

لقد بدأت محاولة التزييف اليهودي بنشر التوراة متصلة بالإنجيل على ما بينهما من اختلاف وتناقض وذلك لحمل المسيحية على تبني دعواهم الباطلة في الوعد الإلهي لإبراهيم الذي يحاولون قصره على إسحق وأبناء يعقوب وحجب إسماعيل أبي العرب والمسلمين وابن إبراهيم الكبير ثم محاولة إيجاد تاريخ لهم في فلسطين[2].

وقد أعلنت ألواح الطين التي كتبت بالخط المسماري والتي وجدت في أطلال بابل ونينوى وبلاد ما بين النهرين أن بني إسماعيل كانوا حقيقة واقعة وأن أبناءه الاثني عشر صاروا قبائل قوية تناوئ بابل وآشور ومصر والإغريق والرومان[3].

لقد ركزت آيات القرآن الكريم على بناء الكعبة وذكر مكة. ولو أمعنا النظر في ذلك لعرفنا أن التركيز جاء ليدلنا على صلة نبي الله إبراهيم ﷺ بالمنطقة العربية وليس للعبرانيين أية علاقة به ولو كانت لهم علاقة به حسب ما يدعون لكانوا أول من حج

---

(1) اللآلىء مفيد عرنوق ص 175 ـ دار النهار ـ بيروت.

(2) المخططات التلمودية، أنور الجندي ص 184 الطبعة الثانية دار الاعتصام 1977.

(3) المخططات التلمودية، أنور الجندي ص 122 الطبعة الثانية دار الاعتصام 1977.

البيت الحرام لأن الذي بناه هو جدهم. لكن الحقيقة تقول إن بناء الكعبة وتقديسها لا يروقان لليهود كون هذا التقديس وهذا البناء تم من قبل إبراهيم وابنه البكر إسماعيل. لأن اليهود لا يعترفون ببناء الكعبة أو هم يعرفون ويخفون الحقائق.

ومكة أول بيت بني في الأرض ليعبد فيه الله سبحانه وهذا أيضاً لا يتوافق مع تعاليم التوراتيين الذين يحاولون طمس كل رمز لعقيدة التوحيد وإظهار هيكل سليمان الذي زعموه على أنه المعبد الأول الذي عُبد فيه الله الواحد في كافة أنحاء الأرض.

وحتى تلغي التوراة أية معجزة مرتبطة بماء زمزم فقد أوردت بشكل مقتضب عن هاجر أم إسماعيل حين قالت: (قومي احملي الغلام وشدي يدك به لأنه سأجعله أمة عظيمة وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام) الإصحاح 18.

فالأمر عادي بالنسبة للتوراة، عطش مؤقت ولا وجود لصحراء بل هناك شجر أيضاً وليست هناك معجزة بينما يأتي القرآن صريحاً حين يتحدث عن إبراهيم وإسماعيل. فإبراهيم أسكن من ذريته بواد غير زرع ولا شجر ولا نبات. وهنا يكمن سر المعجزة معجزة بئر زمزم، وطالما أن إسماعيل نبي اصطفاه الله فإن آية نبوته من واقعة بئر زمزم. وإلا لما كان هناك سبب آخر أو معجزة أخرى لتكون دلالة على نبوته سوى ما بشر به القرآن الكريم عن تلك النبوة.

أما عن قصة ذبح إبراهيم لابنه فقد أوردت التوراة أن إسحق هو الذبيح.

جاء في الإصحاح 22: (وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم فقال له يا إبراهيم فقال ها أنذا. فقال: خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحق إلى أرض المريا وأصعده هناك فأخذ إبراهيم حطب المحرقة ووضعه على إسحق ابنه وأخذ بيده النار والسكين وكلم إسحق إبراهيم أباه وقال يا أبي هوذا النار والحطب ولكن أين الخروف للمحرقة فقال إبراهيم الله يرى له الخروف للمحرقة يا إبني.... وربط إسحق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب ثم مد إبراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه...).

غير أن الحقيقة التي يمكن اكتشافها أن إسماعيل هو الذبيح، وهذا ما يدل عليه ظاهر الآيات القرآنية الكريمة، وما يدل عليه أيضاً ما قالته التوراة نفسها.

ففي سورة الصافات وبعد أن قال الله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [107]، يقول تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْءَاخِرِينَ ۝ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ﴾ [108 - 113].

ولا شك أن الضمير في (وعليه) في آخر الآية راجع إلى الذبيح إسماعيل فالإتيان بالبشرى بإسحق بعد ذكر القصة صريح في أن إسحق غير الغلام الذي ابتُلي إبراهيم بذبحه (وفي اعتقادي أن لفظ إسحق حشر حشراً في غضون القصة وذلك حرصاً من اليهود على أن يكون أبوهم هو الذبيح الذي جاد بنفسه في طاعة ربه وهو في حالة صغره)[1].

والدليل على أن الذبيح هو إسماعيل من التوراة نفسها، أن الذبيح وصف بأنه ابن إبراهيم الوحيد أي الذي ليس سواه إذ سخاوة نفس إبراهيم بولده الوحيد يذبحه امتثالاً لأمر ربه له في المنام أدل على نهاية الطاعة والامتثال لأمر الله. وإذا رجعنا إلى إسحق لم نجده وحيداً لإبراهيم في يوم من الأيام لأن إسحق وُلد ولإسماعيل نحو أربع عشرة سنة كما هو صريح في التوراة وأيضاً فإن ذبح إسحق يناقض الوعد الذي وعد به إبراهيم من إن إسحق سيكون له نسل. وحقيقة أخرى تقول إن مسألة الذبح وقعت في مكة لأن إسماعيل ذهب به أبوه إليها رضيعاً وكون إسماعيل هو الذبيح يؤكده كونه الابن الأكبر وكون الحادثة جرت في مكة المكرمة حسب ما قاله أكثر المفسرين.

وهذا ما ورد في صحيح البخاري عن ابن عباس حيث قال: (إن النبي ﷺ قال... ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد) الخ... وهو حديث طويل يتحدث عن إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام بشكل مفصل.

---

(1) عبد الوهاب النجار. قصص الأنبياء ص 131.

وروى سعيد بن جبير ويوسف بن مهران والشعبي ومجاهد وعطاء بن أبي رباح عن ابن عباس أنه قال: (إن الذبيح إسماعيل. وقال: زعمت اليهود أنه إسحق وكذبت اليهود).

قال محمد بن كعب القرظي: فذكرت ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة إذ كنت معه بالشام فقال لي عمر إن هذا الشيء ما كنت أنظر فيه وإني لأراه كما قلت: ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام وكان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه وكان يرى أنه من علماء اليهود فسأله عمر بن عبد العزيز عن ذلك وأنا عنده فقال أي ابني إبراهيم الذي كان أمر بذبحه؟ فقال إسماعيل ثم قال: والله يا أمير المؤمنين إن اليهود لتعلم ذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أبوكم الذي كان أمر الله بذبحه لما فيه من الفضل الذي ذكر أنه كان منه بصبره على ما أمر به فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحق)[1].

أما سيرة إسحق فقد عرفنا من خلال التوراة أنها تسير على الشكل التالي:

فإسحق يأتي بعد ولادة إسماعيل بـ 15 سنة، تحمل أمه سارة به بعد أن عجزت وكان إبراهيم قد شاخ. وختن إبراهيم إسحق وهو ابن ثمانية أيام. ولما كبر وفطم صنع إبراهيم وليمة عظيمة احتفالاً باكتمال إسحق سن الفطام.

والسؤال الذي نطرحه حول هذه القصة لماذا لم يحتفل إبراهيم يوم ولادة إسماعيل أو يوم ختنه؟ أليس هو ابنه مثل إسحق. ألم يأت بعد شيخوخة طويلة وبعد يأس زوجته من الحمل؟ طبيعي أن التوراة تريد أن تركّز على إسحق وترفع من شأنه أمام والده وأمام من حوله حتى يقال إن إبراهيم ورّث ابنه إسحق عقيدته ووعد ربه في امتلاك الأرض حسب زعم التوراة.

ثم تتحدث التوراة عن قصة الذبيح وتنسبها إلى إسحق وقد ناقشنا هذه المسألة أثناء الحديث عن النبي إسماعيل.

---

(1) عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء ص: 131-132.

وتتابع التوراة الحديث عن إسحق، فتقول إن إبراهيم طلب من رئيس خدمه أن يذهب إلى أور الكلدانية ليخطب بنت أخيه لابنه إسحق. وقد أوصى إبراهيم بألاّ يأخذوا لابنه زوجة من بني كنعان (واستحلفني سيدي قائلاً لا تأخذ زوجة لابني من بنات الكنعانيين الذي أنا ساكن في أرضهم بل إلى بيت أبي تذهب وإلى عشيرتي وتأخذ زوجة لابني، ويتزوج إسحق إحدى قريباته وتدعى رفقة أخت لابان وبتوئيل).

ونتساءل مرة أخرى لماذا يطلب إبراهيم أن لا يتزوج ابنه من بنات الكنعانيين بينما تشير التوراة وبعض الأخبار أن زوجة إبراهيم الثالثة والتي تدعى قطورة هي كنعانية؟ لماذا لم يجد إبراهيم حرجاً من زواجه من كنعانية بينما يجد هذا الحرج في زواج ابنه. إن التوراة تريد أن تقول من وراء ذلك إن نسل إسحق نقي وهو جنس واحد. على الرغم من أن زواج إسحق من قريبته يعني حفاظه على عرقه الكلداني وليس لليهود شأن أو علاقة بالموضوع كله. لكن اليهود الذين يحاولون أن ينسبوا أنفسهم إلى يعقوب بن إسحق يريدون من وراء ذلك أن يثبتوا زعمهم بانتسابهم إلى عرق نظيف لم يخالط دمه دماء الشعوب الأخرى والتوراة نفسها التي تدعي أن إبراهيم رفض زواج ابنه من كنعانية لم تورد السبب لا من قريب ولا من بعيد. ولم يذم إبراهيم الكنعانيين أو يستاء منهم. وكيف يستاء منهم وهم الذين وجدوا في عقيدته التوحيدية ما يتناسب وعقائدهم.

وتتابع التوراة قولها: في الإصحاح 25 (وأعطى إبراهيم إسحق كل ما كان له وأما بنو السراري اللواتي كانت لإبراهيم عطايا وصرفهم عن إسحق ابنه شرقاً إلى أرض المشرق) فالتوراة تصر على أن إبراهيم يميز بين أبنائه. وإبراهيم الذي بارك إسماعيل وبنى وإياه الكعبة يحرمه من ورثته بينما تقتصر الورثة على إسحق. ويحرم إبراهيم أولاده الآخرين أبناء السراري لأنهم أولاد جاريات. وكأن الله الذي اصطفى إبراهيم نبياً لا يعرف كيف ينتقي أنبياءه ليكونوا عادلين حتى بين أبنائهم. إن الله سبحانه منزه عن ذلك وإبراهيم منزه أيضاً عن ذلك.

والقرآن لا يشير لا من قريب أو من بعيد إلى تفضيل إسحق على غيره من أبناء إبراهيم وقال تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: 285].

يقول تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 133].

فحكمة الله اقتضت أن لا يفرق بين رسله، فعلى لسان يعقوب وهو الذي يدّعي اليهود نسبتهم له يقول مخاطباً أبناءه ما تعبدون. قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق. فقد ساوى الله سبحانه بين إسماعيل وإسحق في ورثة إبراهيم. وهي ورثة عقيدة التوحيد وهي أهم ما ورّث إبراهيم لبنيه.

وتقديم إسماعيل على إسحق في الآية الكريمة لا يعني التفضيل ولا تقديم إسحق على إسماعيل يعني التفضيل. إنما أشارت الآية هنا إلى أن إبراهيم أنجب إسماعيل أولاً فإسماعيل وعي عقيدة أبيه التوحيدية قبل إسحق بسبب فارق السن الكبير وهو خمسة عشر عاماً. إذاً لا أسبقية لأحد على الآخر سوى في السن.

وتورد التوراة قولها (تكثيراً أكثر نسلك فلا يعد من الكثرة) والخطاب لهاجر أم إسماعيل ثم تورد: (وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً إثني عشر رئيساً يلد وأجعله أمة كبيرة). إصحاح 17.

وتورد التوراة أيضاً والخطاب لإبراهيم من قبل الرب: (أباركك مباركة وأكثر نسلك تكثيراً كنجوم السماء وكالرمل الذي على شاطئ البحر).

فإذا نظرنا ملياً إلى هذه الفقرات فإننا سنجد أن وعد الله لإبراهيم وإسماعيل قد تحقق فقد كثر أبناؤهما حتى أصبحوا بمئات الملايين. ودعوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم جعلت مئات الملايين تعتنق الإسلام. هذا على مستوى الجانب العقيدي وإذا كان الأمر على مستوى الجانب العرقي فالعرب وهم من نسل

إسماعيل يبلغون 200 مليون نسمة، فوعد الله لإسماعيل تحقق على يد محمد ﷺ وإذا أخذنا الجانب الآخر وهو وعد الله لإسحق بأنه سيكثر نسله حتى يصبح كرمل البحر الذي على الشاطئ فإننا سنجد هذا الوعد لم يتحقق في بني إسحق ويعقوب. فإذا ادعى اليهود أنهم من أتباعه ومن نسله وإذا ادعت التوراة أن الله وعد إسحق بتكثير نسله فأين نسله منذ ظهر اليهود حتى اليوم؟ وحسب النص التوراتي فإن نسل إسحق يجب أن يكون على أقل تقدير كنسل اسماعيل إن لم يكن أكثر منه. لكن أتباع العقيدة اليهودية فرضوا على عقيدتهم ستاراً حديدياً فلا يقبلون من يتهود إلاّ لغايات يهودية خاصّة جداً ولذلك ظل الدين اليهودي ديناً غير عالمي كالإسلام.

على أية حال نحن لسنا بصدد عمل إحصائي نحصي فيه اليهود حتى نقارب أعدادهم بأبناء إسماعيل أو أتباع العقيدة الإسلامية. والمسألة لا تؤخذ في هذا الاتجاه إلا من جانب التوراة، أما الجانب القرآني فلا تقر الآيات الكريمة ولا جوهر العقيدة الإسلامية بكثرة النسل والاعتزاز به إنما يقر المنهج القرآني الرباني بعدد الذين يتبعون عقيدة إبراهيم والذين لا يشركون بالله شيئاً. والذين يؤمنون بأنبياء الله وتعاليم الخالق، فالآيات القرآنية جميعها تتناول المسألة من باب العقيدة التوحيدية. ومن باب من يتبع هذه العقيدة. ولو كان الأمر مرتبطاً بالنسب العرقي واقتصار تعاليم الله على جنس دون جنس لانتفى عدل الله وحاشى له أن لا يكون عادلاً. وهذا بالطبع مرفوض عقيدياً ومرفوض في تعاليم القرآن. إن الرسول محمد ﷺ قال لسلمان الفارسي أنت من أهل بيتي ونسبه إلى بيته لتقواه وليس لنسبه. ومعلوم أن سلمان فارسيُّ الأصل والمنبت.

وحين نتابع التوراة وهي تتحدث عن النبي إسحق عليه السلام سنرى مزيداً من الحس العنصري العرقي الذي تنسبه التوراة إلى الرب تارة وتارة أخرى إلى الأنبياء.

ففي سفر التكوين الإصحاح 25 (وصلى إسحق إلى الرب لأجل امرأته لأنها كانت عاقراً فاستجاب له الرب فحبلت رفقة امرأته وتزاحم الولدان في بطنها

فقال إن كان هكذا فلماذا أنا فمضت لتسأل الرب فقال لها الرب في بطنك أمتان ومن أحشائك يفترق شعبان. شعب يقوى على شعب وكبير يستعبد الصغير).

فلما كملت أيامها لتلد إذا في بطنها توأمان فخرج الأول أحمر كله كفروة شعرة فدعوا اسمه عيسو وبعد ذلك خرج أخوه ويده قابضة بعقب عيسو فدعي اسمه يعقوب، نلاحظ هنا أن مسألة عقم الزوجة يتكرر. فإبراهيم لا تحبل امرأته إلا بعد أن عجزت وتلك معجزة أقرها القرآن الكريم وأقرتها التوراة، ومرة أخرى تأتي زوجة إسحق عاقراً ثم تحبل بمعجزة من الله بتوأم أحدهما يعقوب والآخر عيسو أو العيص.

وهذا يعني حسب تركيبة الأخبار في التوراة أن ولادة الأنبياء الذين ينتسبون إليهم لن تتم إلا بمعجزة من الله. فلماذا زوجة إسحق فقط؟ لماذا لم تكن زوجة إسماعيل عاقراً هي أيضاً؟ بالطبع حتى يقول اليهود إن الله بارك نسل إسحق بعد عقم زوجته. فالمسألة ترتبط بمعجزة ولم يأت يعقوب إلا بعد معجزة وهكذا أصل بني يعقوب منذ إبراهيم ومن ثم إسحق.

والقرآن الكريم لم يتعرض لقصة إسحق كما أوردتها أخبار التوراة إن الآيات القرآنية تركز على إيمان إسحق واتّباعه ملة أبيه إبراهيم حنيفاً مسلماً.

يقول تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [النساء: 163].

ويقول تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 132].

وعلى أية حال فإن قصة إسحق حسب ما جاء من كلام الحق في القرآن الكريم ترتبط بالتعاليم التي تلقّاها على يد أبيه وهي تعاليم الوحدانية ومن ثم ترتبط بتعليمه أولاده من بعده تلك التعاليم.

وتنص التوراة على أن جوعاً حدث فذهب إسحق ومعه زوجته إلى أبيمالك وهو أحد ملوك مدينة جرار الفلسطينية وحدث نفس ما حدث لإبراهيم من ادعائه أن

رفقة أخته وليست زوجته وتصر التوراة على تكرار ما حدث لإبراهيم مع إسحق. ومخالفة الواقع والمنطق في ذلك واضحة لا تخفى على أحد.

تقول التوراة في الإصحاح 26 (وكان في الأرض جوع غير الجوع الأول الذي كان في أيام إبراهيم فذهب إسحق إلى أبيمالك ملك الفلسطينيين إلى جرار وظهر له الرب وقال له لا تنزل إلى مصر وسأله أهل المكان عن امرأته فقال هي أختي لأنه خاف أن يقول امرأتي لعل أهل المكان يقتلونني من أجل رفقة لأنها كانت حسنة المنظر).

ولعلنا نتذكر جميعاً حادثة مشابهة لإبراهيم مع نفس الملك المدعو أبيمالك، والتي وردت أيام تغرب إبراهيم بسبب الجوع الذي حدث في الأرض. فالملفت للنظر أن كاتب التوراة نسي أن ما حدث لإبراهيم أيام أبيمالك سبق ما حدث لإسحق عند نفس الملك بأكثر من ستين عاماً فهل يعقل أن يظل أبيمالك من أيام إبراهيم حتى أيام إسحق وقد بلغ من العمر أربعين عاماً.

ثم لماذا يتغرب إسحق إلى جرار وفيها ملك ليس له به معرفة ولماذا لم يذهب إلى أخيه إسماعيل وهو الأقرب عطفاً وعطاء من أي إنسان آخر على أخيه؟ وهل ليس ثمة علاقة تربط إسحق بإسماعيل؟ ألا يستحق إسماعيل أن يُسأل عن أحواله من قبل أخيه. وهل لاحقاً أن إسحق لم يزر أخاه إسماعيل أو أن إسماعيل لم يزر أخاه إسحق؟ وطالما حدث جوع في الأرض فأول ما يتبادر إلى ذهن إسحق هو السفر بأهله إلى بلاد أخيه التي قد يكون فيها زرع وخيرٌ. تريد التوراة أن تقطع صلات الأخوة بين إسحق وإسماعيل وهما نبيّان مرسلان كما قرر القرآن الكريم، وهذا القصد التوراتي ينطوي على أهداف أهمها أن يظهر إسحق وحيداً في مخصوصية الوعد الإلهي المزعوم بامتلاك الأرض ثم لتقول إن عقيدة إسحق وما سينبثق عنها في الأجيال التالية متفردة ليس لها علاقة بعقيدة إسماعيل.

وتنفرد التوراة دون القرآن في الحديث عن زوجة إسحق وحملها بولدين هما عيسو ويعقوب، وباعتبار أن القرآن لم يورد شيئاً عن أحداث هذه الأمور فسنكتفي بإيراد ما أوردته التوراة بشكل مختصر.

تقول التوراة في سفر التكوين الاصحاح 25 ـ 27 (فكبر الغلامان وكان عيسو إنساناً يعرف الصيد إنسان برية ويعقوب إنساناً كاملاً يسكن الخيام. فأحب إسحق عيسو لأن في فمه صيداً وأما رفقة فكانت تحب يعقوب).

(ولما كان عيسو ابن أربعين سنة اتخذ زوجة (يهوديت) ابنة بيري الحثي وبسمة ابنة إيلون الحثي فكانتا مرارة نفس لإسحق ورفقة).

وتقول التوراة: (والآن خذ عدتك جعبتك وقوسك واخرج إلى البرية وتصيد لي صيداً واصنع لي أطعمة كما أحب لآكل حتى تباركك نفسي قبل أن أموت. وكانت رفقة سامعة).

(وأما رفقة فكلمت يعقوب ابنها قائلة: فالآن يا إبني اسمع لقولي في ما أنا آمرك به اذهب إلى الغنم وخذ لي من هناك جديين جيدين من المعزى فاصنعهما أطعمة لأبيك كما يحب فتحضرها إلى أبيك ليأكل حتى يباركك قبل وفاته).

(وأخذت رفقة ثياب عيسو ابنها الأكبر الفاخرة وألبست يعقوب ابنها الأصغر وألبست يديه وملامة عنقه جلود جديي المعزى).

(فدخل إلى أبيه وقال يا أبي فقال ها أنذا من أنت يا بني فقال يعقوب لأبيه أنا عيسو بكرك قد فعلت كما كلمتني. قم إجلس وكل من صيدي لكي تباركني نفسك. فقال إسحق لابنه ما هذا الذي أسرعت لتجد يا إبني. فقال إن الرب إلهك قد يسّر لي. فقال إسحق ليعقوب تقدم لأجسّك يا إبني أأنت هو إبني عيسو أم لا. فتقدم يعقوب إلى إسحق أبيه فجسّه فقال الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو. فباركه ثم دعا إسحق فليعطك الله من ندى السماء ومن دسم الأرض ليستعبد لك شعوب وتسجد لك قبائل. كن سيداً لإخوتك وليسجد لك بنو أمك ليكن لاعنوك ملعونين ومباركوك مباركين).

(ولما عاد عيسو فقال لإسحق أنا ابنك بكرك عيسو فارتعد إسحق ارتعاداً عظيماً جداً وقال فمن هو الذي اصطاد صيداً وأتى به إلي. فعندما سمع عيسو

كلام أبيه صرخ صرخة عظيمة).

(وقال لأبيه باركني أنا أيضاً يا أبي فقال قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك).

(فحقد عيسو على يعقوب من أجل البركة، وهرب يعقوب بأمر من أمه فذهب إلى أخواله في فاران ومكث هناك عشرين سنة يخدم خاله ويتزوج من ابنتيه ليئة وراحيل).

فالواضح مما ورد أن إسحق يحب عيسو ويفضله على يعقوب.

وأمه تحب يعقوب وتفضله على عيسو.

تقوم الأم بالتعاون مع ابنها يعقوب بخداع إسحق الأعمى ويتنكر بثياب أخيه. أما كيف يُخدع إسحق وقد عرف صوت يعقوب فهذا شأن توراتي خالص.

وتتم المباركة ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو هل بمجرد تغيير يعقوب لثيابه وخداع أبيه يستأثر بالبركة وينتزعها انتزاعاً، وما المانع أن يُبارك يعقوب ويُبارك عيسو، وهل البركة إرث مادي أو وعد بالإرث المادي المحصور بابن دون آخر؟

ولعلنا بصدد الحديث عما قالته التوراة عن إسحق نرى أن النبي إسحق عليه السلام لا يمكن أن يخدع في مسألة كهذه لأن الأنبياء موحى لهم. ثم إنهم لا يحصرون بركة الله على إنسان دون آخر.

لكنه الحس التوراتي الذي يرتب الأحداث والشخصيات حسب منظار خاص يخدم الفكرة اليهودية المبنيّة على قانون الانتقاء والاصطفاء الذي صنعه اليهود.

عيسو لن يكون له شأن في مجريات الأحداث الآتية. فهو أولاً غير مبارك من أبيه وثانياً تزوج من غير قومه. أما يعقوب فهو مبارك من قبل أبيه وهو سيتزوج من جنسه ولا يختلط الدم فيضيع شعب الله المختار!! وسنرى فيما بعد أن يعقوب سينجب أولاده من أختين هما ليئة وراحيل وسيكون أولاده يوسف وبنيامين وبقية الأسباط هم أساس بني إسرائيل الذين يزعمون الانتساب إلى يعقوب. أما يعقوب عليه السلام فله شأن آخر في القرآن كما أن له شأناً آخر في التوراة باعتباره الشخصية المركزية في التراث العبراني.

وما نراه من صفات شخصية لدى يعقوب في القرآن أنه نبيٌ عظيمٌ صابرٌ أخلاقه أخلاق الأنبياء وليست أخلاق أناس عاديين. وهذا ما يناقض ما قصته التوراة عما فعله يعقوب بأخيه عيسو.

يقول تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: 5].

ويقول تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: 18].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: 67].

وقال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: 86].

فهذا هو النبي يعقوب عليه السلام يتصف بصفات الأنبياء المرسلين. يرفض أن يقص ولده يوسف رؤياه على إخوته لئلا يمكروا به. ويدرك يعقوب أن الشيطان الذي يسوّل للنفس أن تعمل الشر لابد من مقاومته ورفض وسوسته.

إذاً فكيف به وهو الذي يتصف بهذه الصفات يقوم بخداع أبيه والكذب عليه. إن حديث التوراة كدأبها تشوه الأنبياء وتمس كرامتهم. يعقوب يتوكل الله ويشكو حزنه له وهو الصابر على بلاء صعب وامتحان قاسٍ. فهذه هي صفات الأنبياء وليست تلك الصفات التي وصفتها إياه التوراة.

إن ما ذكره القرآن الكريم عن يعقوب يضعه في مكانة سامية من الحكمة واليقين[1].

---

(1) أحمد شلبي مقارنة الأديان اليهودية ص 134.

ويعلق الباحث سميث على تصرفات يعقوب كما وردت في التوراة بقوله: ولا نجد بحال من الأحوال وسيلة لقبول تصرفات يعقوب فقد كان واضحاً أنها غير عادلة. وكان يسلك مختلف السبل وينتهز كل الفرص لينال حقوق أخيه. كان مستعداً أن يستعمل أساليب المكر والختل والحيل ليحقق أهدافه. فيعقوب هذا يعتبر نموذجاً حقيقياً لأخلاق اليهود. وعلى هذا تعتبر تسميتهم باسمه ميراثاً دقيقاً. فقد ورثوا عنه أكثر مما ورثوا عن إبراهيم الذي كان رجل عقيدة وإيمان أكثر منه رجل ختل ودين[1].

وطبيعي أن القرآن الذي يرفض أن يتصف نبي من أنبياء الله بهذه الصفات يوضح أن يعقوب النبي ما كان كذلك. بل كان نبياً صادقاً صابراً حافظاً لوصايا أبيه وجده إبراهيم وعقيدة التوحيد إنما أرادت التوراة أن تقول كان يعقوب بصفات كذا وكذا وهم يجهلون أن البحوث المقارنة والدراسات ستكشف عن انحرافهم التام عن عقيدة يعقوب وبقية الأنبياء.

يقول الدكتور أحمد شلبي معلقاً على الحياة في بيت يعقوب قائلاً: (قارئ التوراة يجد أحداثاً عجيبة يدهش الإنسان أن تجري في بيت رسول. ومن هذه الأحداث أن زوجة يعقوب راحيل كانت وثنية وقد بلغ من وثنيتها أنها سرقت أصنام أبيها وفرت بها هاربة من بيت أبيها مع زوجها إلى مكان سكنه. ومن هذه الأحداث أيضاً أن رأوبين بن يعقوب البكر قد زنى ببلهة زوجة أبيه وأمام أخويه دان ونفتالي وشاع هذا الخبر حتى سمعه يعقوب)[2].

وقد جاء في سفر التكوين الإصحاح الحادي والعشرين: فسرقت راحيل أصنام أبيها وخدع يعقوب قلب لابان الآرامي إذ لم يخبره أنه هارب.

وفي نفس الإصحاح يقول لابان مخاطباً يعقوب والآن أنت ذاهب لأنك

---

(1) God and man in early Israel نقلاً عن كتاب مقارنة الأديان أحمد شلبي ص 260.

(2) مقارنة الأديان. أحمد الشلبي ص 261.

اشتقت إلى بيت أبيك ولكن لماذا سرقت آلهتي.

وهذا دليل على أن راحيل لم تستطع الاستغناء عن ديانة أبيها لابان وقومها. فحباً بهذه الأصنام وعبادتها سرقتها وهي ملك أبيها وأرادت أن تحافظ عليها لاسيما أنها ستهاجر مع زوجها إلى منطقة أخرى قد لا يكون فيها آلهة متمثلة بالأصنام التي كانت تعبدها.

وإذا تساءلنا ما هي تلك الأصنام وماذا تعني بالنسبة للألهة الآرامية التي يعبدها لابان خال يعقوب وابنته راحيل؟.

إذا درسنا الزمن الذي وجد فيه يعقوب عرفنا أنه يقع تقريباً في 1600 ـ 1700ق.م وهذا يعني أيضاً أن الآراميين في تلك الفترة وجدوا في (كركاميش) أي جرابلس وفي شمال زنجرلي وفي حلب ودمشق وكان أهم إله عندهم هو حدد أو حداد وهو في الأصل إله الزوابع والعواصف وقد صنعوا له رمزاً بشكل صنم يضعونه في بيوتهم وينقلونه في حلهم وترحالهم كما كان يفعل الأقوام المتنقلون من مكان إلى مكان أو تلك الأقوام التي تنتقل لأجل المرعى والأمن. وقد كان لابان خال يعقوب يسكن فدان آرام التي هي مدينة آرامية في شمال سوريا أو بين النهرين.

وعندما لم يستطع لابان إعادة أصنامه بسبب إخفائها من قبل ابنته زوجة يعقوب يئس من محاولته وعقد عهداً بينه وبين يعقوب. وتقول التوراة إن لابان ويعقوب صنعا رجمة من حجارة وجعلاها شاهدة على العهد. وهذا التقليد العقيدي يرتبط بالخرافة والأسطورة والمعتقد الأسطوري أكثر مما يرتبط بديانة توحيدية. وقد اتفق لابان ويعقوب على تحكيم إله إبراهيم وآلهة ناحور آلهة أبيهما أي آلهة والد لابان ووالد يعقوب فقالت التوراة (إله إبراهيم وآلهة ناحور آلهة أبيهما يقضون بيننا).

وعلى هذا فأين عقيدة يعقوب التي أخذها عن أبيه إسحق و جده إبراهيم عليهم السلام وهل حقاً يقبل نبي مرسل أن يحكّم آلهة وثنية وهو بها كافر أصلاً. وكيف يقبل يعقوب السكوت على سرقة زوجته لأوثان أبيها وهو يرفضها طالما هو

على ديانة أبيه و جده وجاء في سفر التكوين الإصحاح 35 أيضاً (فقال يعقوب لبنيه ولكل من كان معه اعزلوا الآلهة الغريبة التي بينكم فأعطوا يعقوب كل الآلهة الغريبة التي في أيديهم) وهذا يعني أن يعقوب يعترف بوجود آلهة غير إلهه ولكنها آلهة غريبة وله إله خاص ولغيره من الناس آلهة خاصة بهم ولكلٍ ميله واعتقاده. وهذا لا يعني أن الآلهة الغريبة مرفوضة لأنها أقل شأناً من إله يعقوب. وإذا كانت مهمة يعقوب كنبي نشر ديانة التوحيد ورفض الوثنية فما مبرر طلبه من أهله جمع الآلهة الغريبة لديه، إنَّ هذا إن دل على شيء فإنه يدل على الأمور التالية:

1 ـ إن أولاد يعقوب وهم الأسباط إضافة لابنه يوسف حملوا معهم من فدان آرام عقائد قومهم الذين عاشوا بينهم وهي عقائد وثنية تعتمد الآلهة الوثنية الصنمية المجسدة.

2 ـ إن راحيل زوجة يعقوب حملت معها أوثان أبيها لتعبدها ولكنها لم تكن وحدها التي اهتمت بأوثانها.

3 ـ إن يعقوب أراد إبعاد الآلهة غير المختصة به فهو له إله خاص وبقية الآلهة غريبة.

4 ـ يحاول اليهود القول بأن لنبي إسرائيل إلهاً خاصاً هو لهم وحدهم دون سواهم وعلى هذا فإن هذا الإله قبلي خاص بهم كما للقبائل آلهة خاصة.

بينما تقول التوراة ذلك يصرح القرآن الكريم بما يفضح زيفهم، يقول تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 133 ـ 134].

ويقول تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 132].

ونحن نتذكر جميعاً أن إبراهيم لما هاجر هو ولوط بأمر ربه من بلده إلى

الأرض المباركة كان أهم سبب في هذه الهجرة الخلاف والتناقض الكامل بين عقيدته التوحيدية وعقيدة قومه الوثنية. فكيف يتوافق يعقوب وهو حفيد إبراهيم مع ديانة رفضها مع ديانة جده وأبيه؟ كيف يقبل على نفسه وهو يعرف كيف رفض جده الوثنية أن يغطّي على سرقة زوجته للأوثان وجلبها معها حيث هو ذاهب؟

إن الحقيقة تقول إن يعقوب لم يعبد آلهة وثنية وكذلك أبناؤه. فلا تعدد للآلهة وليس هناك إلهٌ خاصٌ قبلي. إن يعقوب وبنيه لم يعبدوا سوى الله الواحد الذي عبده الموحدون إبراهيم وأبناؤه والذي سيعبده كافة الأنبياء حتى محمد ﷺ وهو خاتم الرسل والنبيين.

لقد أشارت كل المصادر ومن بينها التوراة أن يعقوب عاش غريباً عن أرض فلسطين أي مكان تواجد أبيه. ومكث عند أخواله في فدان أرام عشرين عاماً وتزوج هناك من ابنتي خاله لابان. وقد أنجب هناك كافة أبنائه إلا الأصغر منهم المدعو بنيامين. وبعد انقضاء العشرين عاماً. أتى إلى مكان تواجد أبيه وكان يخشى أن يقتله أخوه عيسو لكن أخاه استقبله ورحب به وعفا عنه.

وما يُلفتُ النظر في الإصحاح الثاني والثلاثين قول التوراة (فبقي يعقوب وحده وصارعَه إنسان حتى طلوع الفجر ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه وقال أطلقني لأنه قد طلع الفجر. فقال لا أطلقك إن لم تباركني فقال له ما اسمك فقال يعقوب فقال لا يدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت.. فدعا يعقوب اسم المكان فنيئيل قائلاً لأني نظرت الله وجهاً لوجه).

وفي الإصحاح الثالث والثلاثين: (وأما هو فاجتاز قدامهم وسجد إلى الأرض سبع مرات حتى اقترب إلى أخيه).

فبصريح العبارة ترى التوراة أن يعقوب صارع الله وظل قابضا عليه حتى باركه ثم اختار له اسماً آخر غير يعقوب هو اسم إسرائيل وقال يعقوب (لأني

نظرت الله وجهاً لوجه)، فإضافة لما رأيناه من عقائد وثنية في سيرة يعقوب تغرق التوراة في الوثنية فتلصق بيعقوب قصة صراعه مع الله يداً بيد حتى الفجر.

ثم إن يعقوب يسجد لأخيه عيسو سبع مرات وهو الذي حمل بركة أبيه دون أخيه ثم إن نساء يعقوب الأربع ليئة وجاريتها وراحيل وجاريتها وأولاده جميعهم يسجدون أمام عيسو. وكل ذلك نابع من الخوف وليس بسبب حب أو احترام. فيعقوب ومن معه لم يجد وسيلة يرضي بها أخاه سوى السجود. وهذا ما ينافي طبيعة النبوة التي خصها الله ليعقوب وهذا يذكرنا بسجود إبراهيم للملائكة حين أتوا ينذرونه بأنهم سيدمرون قوم لوط حسب قول التوراة إلا إذا كان السجود سجود تحية.

على أية حال سنعود لدراسة العقائد الوثنية في العقيدة اليهودية في فصول قادمة لندرك حقيقة هذه العقيدة وما يتلبسها من وثنية تخالف جميع خصائص العقائد التوحيدية.

أما عن الوعد الإلهي المستمر والذي يصل إلى يعقوب بأن يمتلك أرض كنعان ومن ثم أولاده من بعده فإننا سنفرد له صفحات خاصة لما له من أهمية على مستوى الصراع العقيدي بين المسلمين والصهاينة.

وحين نتابع سيرة يعقوب عليه السلام فإننا نجد أنفسنا مع النبي يوسف وقصته مع إخوته الذين يطلق عليهم الأسباط.

بشكل عام تتوافق الخطوط العريضة لقصة يوسف في التوراة والقرآن وهذا التوافق يمكن أن نلخصه بالنقاط التالية:

1 ـ يوسف ابن نبي مرسل يدعى يعقوب.

2 ـ يوسف أصغر من إخوته باستثناء واحد.

3 ـ إخوة يوسف يغارون منه ويحسدونه فيتآمرون عليه لقتله أو لإلقائه في بئر.

4 ـ يوسف يُباع في مصر بعد أن يلتقطه بعض رجال القوافل التجارية.

5 ـ الحوادث التي تحدث ليوسف مع امرأة سيده ثم سجنه وخروجه وتملكه على

خزينة الدولة هي واحدة في التوراة والقرآن.

6 ـ لقاء يوسف بإخوته وحجزه لأخيه ثم تعرفهم إليه واعترافهم بذنبهم وعودة جمع شمله مع أبيه.

7 ـ وفاة يعقوب.

ومع هذا التوافق في الخطوط العريضة للقصة بين التوراة والقرآن إلا أننا سنجد اختلافات جذرية أيضاً في الغايات والأهداف وبعض الزيادات التوراتية التي أضيفت لتضفي على القصة أسلوباً خيالياً أسطورياً.

تقول التوراة في سفر التكوين الإصحاح 27 (ومضى إخوته ليرعوا الغنم غنم أبيهم عند شكيم فقال إسرائيل (يعقوب) ليوسف أليس إخوتك يرعون عند شكيم تعال فأرسلك إليهم، اذهب انظر سلامة إخوتك وسلامة الغنم ورد لي خبراً فأرسله من وطاء حبرون إلى شكيم).

(فذهب يوسف وراء إخوته فوجدهم في دوثان).

(فلما أبصروه من بعيد قبلما اقترب إليهم احتالوا له ليميتوه.. هلم نقتله ونطرحه في إحدى الآبار ونقول وحش رديء أكله).

وفي الإصحاح 39: (ثم حدث نحو هذا الوقت أنه دخل البيت ليعمل عليه ولم يكن إنسان من أهل البيت هناك في البيت. فأمسكته بثوبه قائلة اضطجع معي. فترك ثوبه في يدها وهرب وخرج إلى خارج وكان لما رأت أنه ترك ثوبه في يدها وهرب إلى خارج أنها نادت أهل بيتها وكلمتهم قائلة انظروا قد جاء رجل عبراني ليداعبنا. دخل إلي ليضطجع معي فصرخت بصوت عظيم وكان لما سمع أني رفعت صوتي وصرخت أنه ترك ثوبه بجانبي هرب وخرج إلى خارج فوضعت ثوبه بجانبها حتى جاء سيده إلى بيته).

وفي الإصحاح 42 (فذكر يوسف الأحلام التي حلم عنهم وقال لهم جواسيس أنتم لتروا عورة الأرض جئتم. أرسلوا واحداً منكم ليجيء بأخيكم وأنتم تحبسون

فيمتحن كلامكم هل عندكم صدق وإلا فوحياة فرعون إنكم لجواسيس بهذا تمتحنون. وحياة فرعون لا تخرجون من هنا إلاّ بمجيء أخيكم الصغير إلى هنا).

وفي الإصحاح 46 (ووُلد ليوسف في أرض مصر منسَّى وإفرايم اللذان ولدتهما له أسنات بنت فوطي فارع كاهن أون).

(فصعدوا من مصر وجاءوا إلاّ أرض كنعان إلى يعقوب أبيهم وأخبروه قائلين يوسف حي بعد. فجمد قلبه لأنه لم يصدقهم ثم كلموه بكل كلام يوسف الذي كلمهم به).

وفي الإصحاح 46. (جميع نفوس بيت يعقوب التي جاءت معه إلى مصر سبعون.

وفي الإصحاح الخمسين: (فوقع يوسف على وجه أبيه وبكى عليه وقبله وأمر يوسف عبيده الأطباء أن يحنطوا أباه. فحنط الأطباء إسرائيل وكمل له أربعون يوماً لأنه هكذا تكمل أيام المحنطين. ومات يوسف وهو ابن مئة وعشر سنين فحنطوه ووضع في تابوت في مصر).

أما في القرآن الكريم فقد أفرد الله سبحانه وتعالى سورة تضم 111 آية اختصت بالحديث عن يوسف وأبيه وإخوته والعزيز وامرأته. إضافة إلى آية من سورة الأنعام وآية في سورة غافر.

وسبب نزول هذه السورة في القرآن الكريم أن كفار مكة لقي بعضهم اليهود وتباحثوا في ذكر محمد ﷺ فقال لهم اليهود: سلوه لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر وعن قصة يوسف فنزلت. وهذا ما قاله النسفي في تفسيره.

ونستعرض الآيات التي تشير إلى بداية صراع بين يوسف وإخوته ومن ثم مسيرة حياة يوسف كما يراها القرآن الكريم.

يقول تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ۝ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا

إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يوسف: 4 - 5].

ويقول تعالى: ﴿ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝ ... أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝ ﴾ [يوسف: 8-9 / 12]

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۖ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [يوسف: 15].

﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [يوسف: 19].

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: 22].

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ ﴾ [يوسف: 21].

﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [يوسف: 23].

﴿ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: 39- 40].

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ [يوسف: 54].

﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ

ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: 78].

﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ [يوسف: 82].

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ [يوسف: 88].

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [يوسف: 100].

﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: 101].

ضمن الخطوط العامة نرى توافقاً في الأحداث التي جرت مع النبي يوسف في التوراة والقرآن وقد أوردنا ملخصاً لهذه الخطوط.

تورد التوراة أن يوسف كان قد بلغ من العمر سبعة عشر عاماً عندما كاد له إخوته بينما يورد القرآن أنه كان غلاماً صغيراً وذلك في قوله تعالى يا بشراي هذا غلام. ومن كان في السابعة عشرة من عمره يبعد أن يصنع معه ما صنع يوسف. ولو كان فعلاً في هذا السن لقاوم أو صرخ أو تصرف أي تصرف مدافعاً عن نفسه حين هم إخوته بإلقائه في الجب.

ويوسف حسب ما أوردته التوراة بشأن عمره أصبح يشكل خطراً على إخوته بسبب حب أبيه المميز له وبسبب صفاته الخاصة التي افتقدوها والتي تؤهله كي يصبح ذا شأن.

ويفيدنا القرآن الكريم أن قصة الرؤيا لدى يوسف وحديثه لأبيه بشأنها حدث أثناء غياب إخوته وتفيد التوراة أن قصة الرؤيا حدثت بحضرة إخوته وتقول إن أباه

انتهره على هذا القول وقال له متهكماً (لعلنا نسجد لك أنا وأمك وإخوتك).

وهناك اختلاف في قول التوراة إن يعقوب هو الذي بعث بيوسف ليرى شأن إخوته ولو كان يعقوب يخاف على ابنه من إخوته لما بعثه خشية أن يدبروا له أمراً مكروهاً بينما القرآن يقول إن المؤامرة قد تمّ تصورها وأنهم طلبوا لأبيهم أن يبعث معهم يوسف ليرتع ويلعب وقد كان يخشى يعقوب على ابنه من كيدهم.

وفي الروايات الإسلامية أن يوسف بعدما ترك في الجب جاءت قافلة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه في البئر فتعلق به يوسف فلما نزع الدلو يحسبها قد امتلأت ماء فإذا غلام وسيم قد تعلق بها فاستبشر الرجل وقال يا بشراي هذا غلام ويقول المفسرون فسحبوا يوسف وباعوه لقافلة فيها إسماعيليون عرب. ويصل يوسف مع القافلة إلى المصريين.

وتورد التوراة أن يوسف دخل مصر وأحد الفراعنة يحكم مصر. بمعنى أن الزمن الذي جاء به يوسف إلى مصر كان زمن إحدى الأسر الفرعونية الحاكمة. وترى الدراسات التاريخية ومنها دراسة الدكتور أحمد سوسة العرب واليهود في التاريخ أن الذين كانوا يحكمون مصر آنذاك هم الهكسوس.

والقرآن الكريم لم يأت على ذكر كلمة فرعون خلال سورة يوسف إنما ذكر كلمة الملك بينما ذكر فرعون في قصة سيدنا موسى عليه السلام. وهذا دليل على أن القرآن الكريم يساعد في معرفة الزمن الذي نزل فيه يوسف في مصر.

ويرد في التوراة أن يوسف حلف بحياة فرعون. (وحياة فرعون لا تخرجون من هنا إلا بمجيء أخيكم الصغير إلى هنا) وتكرر هذا القسم أكثر من مرة. وظاهر الكلام أن يوسف سار على نهج الناس هناك حيث ألّهوا ملوكهم. والحقيقة أن يوسف راح يدعو إلى ديانة التوحيد وهو في السجن، ومن كان يعرف حقيقة التوحيد لا يمكن أن يقسم الإيمان بحياة أشخاص ولا سيما إذا كانوا ملوكاً يدّعون الألوهية أو أنصافها وتتفق التوراة مع القرآن على أن يعقوب وأولاده كانوا

يعتاشون من رعي الغنم وكانوا بدواً رحلاً بيوتهم من الخيام ليس لهم مستقر. ولا تربطهم بأرض كنعان أية رابطة.

أما بالنسبة لقبر يوسف فهناك رواية يهودية تقول إنه بين جبلي عيبال وجرزيم وفي واد منخفض يقع تل بلاطة الذي ورد اسمه في الكتب الدينية وفي وسطه مبنى صغير من حجرتين. يقع قبر النبي يوسف ويعتبره المسلمون واليهود أخطر بؤرة بعد الحرم الإبراهيمي في الخليل بسبب الاحتكاك اليومي بين المسلمين والمستوطنين.

وقد توسع المستوطنون اليهود من مستعمرة (إيلون موريه وبدأوا بزيارة قبر يوسف وسط بلاطة. وفي عام 1985 أقاموا في الحجرة المجاورة للمقام التي كان يسكن فيها العجوز فياض الدويك الذي كان القائم عليها حتى وفاته مدرسة دينية يؤمها الطلاب اليهود من الصباح حتى المساء وعززهم الجيش الصهيوني بحراسة دائمة من جنوده).

يبدو المكان الذي تحيط به الأسلاك الشائكة وكأنه مكان لا يمت إلى المسلمين بصلة. ففي وسطه حجر كبير مغطى بقماش بلاستيكي أخضر كتب عليه بالعبرية (قبر يوسف الصديق) وعلى جانبيه حجران دائريان يعتبر اليهود أحدهما قبر إفرايم بن يوسف والآخر منسّى بن يوسف وتغطي كتابات عبرية كل زاوية في الحجرة الصغيرة إضافة إلى باب واحد في جدرانها تعلوه نجمتا داود ويؤكد حارس المكان الشاب فياض الدويك أن المكان الذي تعلوه نجمتا داود هو مكان المحراب الذي أغلقه المستوطنون بباب حديد واحتفظوا بمفتاحه.

هذا المكان يعتبره اليهود المكان الذي دفنت فيه عظام يوسف بعد أن أحضرت من مصر. ويقول المسلمون مؤكدين أن هذا المكان ليس سوى مقام أقيم له. وبعض الروايات تقول إن المكان الذي يعتبره بعضهم قبر يوسف لا يتجاوز عمره المائتي عام وهو مكان بناه رجل تقي صالح يُدعى يوسف وذلك في العهد التركي.

أما بالنسبة للرواية اليهودية فإن أحداث التوراة تشير إلى استحالة نقل عظام

يوسف من مصر إلى فلسطين. ففي سفر الخروج تورد التوراة أن العبرانيين حفروا قبر يوسف ونقلوا عظامه معهم عبر سيناء. ومن المعروف توراتياً أن العبرانيين ظلوا في سيناء أربعين عاماً ومات النبي موسى ولم يدخلوا فلسطين ودخلوها غازين أيام يوشع بن نون والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المجال أين كانت عظام يوسف أثناء التيه في سيناء لمدة أربعين عاماً هل احتُفظ بها ومن الذي احتفظ بها وهل حافظت على شكلها ولم تتفتت وسؤال آخر يطرح نفسه أيضاً، إن التوراة تورد أن يوسف لما مات حنطوه ودفن في قبر كما فعلوا بيعقوب. فلماذا حافظت مومياء الفراعنة على شكلها حتى عصرنا الحاضر بينما أصبحت جثة يوسف عظاماً نخرة في أقل من أربع مئة سنة.

وبالنسبة إلى المزاعم التوراتية عن نقل عظام يوسف إلى فلسطين من مصر، نقول إن الأحاديث النبوية الصحيحة تشير إلى أن الأنبياء لا تتغير أجسادهم بعد الموت وتبقى كما هي. وهذا النبي سليمان يموت وهو متوكئ على عصاه ويبقى سنة كاملة كأنه واقف في معبده حتى تنخر الدودة عصاه فتسقط جثته على الأرض فما بال جسده لا يتأثر بالانحلال أو النخر أو الاهتراء رغم مرور سنة على وفاته؟

إذاً يوسف ظل مدفوناً في مصر ولم تنقل عظام ولا جثة. وادعاؤهم باطل ومرفوض.

مسألتان يجدر الإشارة إليهما:

في سياق التوراة يرد أن يوسف حنط أباه واحتفظ بجثته أربعين يوماً كما يفعل المصريون ثم يرد أن يوسف لما مات حُنط الآخر ودفن بأرض مصر.

والتحنيط عادة مصرية أو هي تدخل في صلب العقائد المصرية. وكانوا يحنطون الملوك ومن جاراهم من الوزراء والقادة. اعتقاداً منهم أنهم سيرجعون إلى عالم آخر يطلقون عليه العالم السفلي حيث تحاسبهم الآلهة وكانوا يضعون إلى جانب الجثة ما يحتاجه المرء من أكل وشراب ويعقوب عليه السلام حُنط

ونفذت وصيته بأن يدفن إلى جانب أبيه إسحق وجده إبراهيم. أما يوسف فيموت ويدفن في مصر ولم يرد أنه وصّى أن يدفن مباشرة إلى جانب أبيه وأجداده. إنما وصّى أن تنقل عظامه. وهذا حسب ما ورد في سفر التكوين 50:24 ـ 25.

المسألة الثانية تورد التوراة أن يوسف قد تزوج من أسنات بنت فوطي فارع الكاهن الأكبر لدى المصريين. والكهنة في زمن يوسف ولا سيما في مصر كانوا خداماً للمعابد الوثنية. فهل حقيقة أن يوسف تزوج ابنة هذا الكاهن؟ وكيف كانت العلاقة الدينية إذاً بين يوسف وبين والد زوجته؟ هل كان يوسف يذهب معه إلى المعابد الوثنية أم أن يوسف وهو نبي دعا هذا الكاهن إلى ديانة التوحيد؟ وحقيقة الأمر أن التوراة لا تجيب على هذه التساؤلات المفترضة بناءً على ما جاء من حيثيات ووقائع في النص التوراتي. وقد يحتمل أن تكون زوجته موحدة، والله أعلم.

ثم تقول التوراة إن يوسف أنجب من أسنات بنت الكاهن ولدين وسماهما منسى وإفرايم وباعتبار أن أمهما مصرية ظلا يعيشان في مصر وتزوجا مصريتين وأنجبا أولاداً وأحفاداً في مصر. وحسب التشريع اليهودي فإن من كانت أمه غير يهودية لا يعتبر يهودياً. وعلى هذا فإن ولدي يوسف لا يمتّان بصلة إلى عقيدة أعمامهما وهما غريبان حتى في النسب والعرق إذ اختلط الدم وهذا أيضاً ينفي نظرية العرق النقي للشعب العبراني التي يقول بها اليهود.

وبانتهاء دور يوسف وموته لا نجد أي أثر لأولاده في مكانة أبيهم. فلا نرى مثلاً منسى أو إفرايم أو أي حفيد يتسلم منصباً مماثلاً لمنصب يوسف أو لأي منصب آخر. وكأن موت يوسف كان نهاية حقبة وبداية حقبة في الحياة المصرية السياسية والدينية.

ويظهر أن حكم الهكسوس الذي عاش في كنفه النبي يوسف قد انتهى بالاندحار وعودة الفراعنة المصريين إلى شمال مصر بعد أن انكفأوا في الجنوب وظلوا يحاربون الهكسوس حتى أخرجوهم من ديارهم. وباعتبار أن أحفاد يعقوب عاشوا بنعيم واستقرار أثناء حكم الهكسوس فإن المصريين نقموا منهم

وراحوا يذيقونهم أصناف العذاب . وكل ذلك بسبب ما ظهر من تعاون وثيق بينهم وبين الهكسوس الذين استعمروا مصر حقبة من الزمن .

وبانتهاء حقبة يوسف نكون قد أتينا على نهاية فترة زمنية امتدت من إبراهيم وحتى يوسف اختلفت وستختلف عما نراه من شخصيات وأحداث في الأزمان التالية .